المكتبة الثقافية

ألوان من الفن الشعبي

محمد فهمي عبد اللطيف



المكتبة الثقافية
٣٧٩

ألوان من الفن الشعبى

محمد فهمى عبد اللطيف

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٤

الطبعة الأولى   صدرت فى ١٥ يونية ١٩٦٤

هذا الكتاب

فى هذه الطبعة

هذا الكتاب ، فى هذه الطبعة ، يتضمن ثلاثة أبحاث كاملة من أغانى الهائمين على باب الله ، والهائمين عن الطريق الى الله ؛ ثم الهائمين بحب النيل والكادحين على ضفافه ، وكانت بعض هذه الأبحاث قد نشرت مجزأة فى سلسلة المكتبة الثقافية ، أو مقالات فى الصحف والمجلات الأدبية ، ولكننى عدت اليها فأكملت ما كان ناقصا منها ، وفصلت ما كان مجملا فيها ، وسويتها فى هذه الصورة التى أقدمها الى القارىء فى هذه الطبعة الكاملة التى جمعت شتات ما قدمت من أبحاث ، وما أضفت اليها من زيادة وتفصيل ..

ولا أزعم للقارىء أنى استطعت أن أبلغ الغاية فى كتابة هذا البحث ، فانه بحق تتسع آفاقه وتمتد أعماقه فى الماضى البعيد ، وكثير من شواهده ومظاهره قد اختفت باختفاء دواعيها ، أو بتطور هذه الدواعى تمشيا مع تطور حياة الشعب ؛ وحسبى أننى أقدم فى هذا الكتاب جديدا من البحث لم يسبق اليه سابق من قبل ، وانى نبهت على قيمة هذا القصصى الشعبى الذى يغنيه

المداحون ، وكشفت عن كثير من الحقائق النفسية والآثار الاجتماعية التى زرعتها فى النفوس تلك الاغانى والألـوان التى عاش الشعب مخمورا بأنغامها ، متجاوبا مع ايقاعاتها وما يزال ..

وما أريد أن أكتب مقدمة شاملة لهذا الكتاب فيمـا تضمنه من أبحاث ، فقد كتبت لكل بحث مقدمة خاصـة به ، شرحت فيها موضوعه ، وكشفت عن موقع الاهتمام به ، ومدى ارتباطه بوجدان الشعب ، وأحسب أن فى هذا ما يغنى فى افادة القارىء ، بل انه أوفى الافادة ..

وقبل أن أختم هذه المقدمة ، أو هذا البيان ، الذى كان لابد منه أحب أن أصرح للقارىء بأنى ربطت نفسى بمتابعة البحث فى الأغانى الشعبية حتى أستوفى هـذه الأغانى فى جميع أنماطها ومعارضها .

وبعد هذه الدراسة التى أقدمها فى هذا الكتاب، فانى على موعد مع القـارىء لتقديم أغانى الحب عنـد الشعب فى دراسة وافية مستوعبة جمعت مادتها الوافرة وضممت عناصرها المتفرقة ، وأرجو أن أجد من مشـاغل الحياة فرصة لاخراجها ؛ والله الموفق والمعين ..

محمد محمد فهمى عبد اللطيف

هذا البحث

هذا البحث يتضمن دراسة جديدة فى الفن الشعبى . قصرت البحث فيه على ناحية خاصة من هذا الفن مما أسميه بالأغانى الهائمة .. وأعنى بها تلك الأغانى التى يرددها جماعة من الفنانين الشعبيين على أسماع الناس فى الطرقات والمحافل العامة ، التماسا للسؤال ، وطلبا للنوال .

والأغانى الهائمة تمثل لونا من ألوان الفن الشعبى اعتاد الناس أن ينظروا اليه نظرة ازدراء ومهـانة ، وأن يقدروه مظهر ذلة واستكانة ؛ على أنه فن أصيل عريق ، اكتسب الأصالة من صدق العاطفة ، واكتسى العراقة من الهام الفطرة ، وانما يكون الفن حيث تكون حرارة النفس ، ورهافة الحس ، وانطلاق الروح ، فلحن الراعى فى شبابته، وترنم الشحاذ فى صفارته ؛ وهزيج الحادى فى قافلته ؛ ونداء البائع على سلعته ، وأنين الشاكى فى نشيجه .. كل هذه الترانيم التى تنبعث من الأعماق ؛ وهى تحمـل هيام الروح ،وظمأ العاطفة ؛ ولهفة النفس ، أعـرق فى

الفن ، وأقرب الى القلب ، وأقدر الى اقتحام المشاعر ، من تلك الألحان المصنوعة المرسومة التى تعتمد على زخرف الصنعة ، وبهرج الأداء ، فأنت اذا افتقدت فيها براعة الصناعة ، وحسن التقسيم والترتيب بين مقامات النغم ، فانك واجد فيها روعة الالهام ، وبساطة الفطرة وسماحتها، وصدق الأداء ولطافته ، كذلك المعنى الذى تحسه فى شدو الطير وهديله ، وجرى الماء وخريره ، والاحساس بروعة الالهام فى الفن هو الذى جعل الفيلسوف الانسانى « تولستوى » يمجد العازف « لولى » لأنه ترك الخدمة فى المطبخ حيث يجد قوته ، وانطلق هائما فى الطرقات يعزف على قيثارته ، ويعتبره بهذه التضحية أعرق فى الفن من طلبة المعهد الموسيقى الذين يستفيدون من وضع معين قائم، فغايتهم أن يؤدوا ما يلقن اليهم ، لا أن يعبروا عن أرواحهم أو يصوروا ما فى نفوسهم .

والحق أنه لن يضير الفن ، أو يغض من قيمته ، أن يكون وسيلة الى استدرار العطف والنوال ، وأن يترنم به أولئك الفنانون الهائمون طلبا للمنح والعطاء ؛ ففى صميم الحقيقة أن الانسان يعيش على الطلب دائما مدفوعا الى ذلك بطبيعته الملحة ؛ فهو لا ينفك كل يوم عند مطلب من مطالب الحياة يلح فى استجدائه ؛ ويتوسل فى تحقيقه ؛ فاذا ما أغلقت أمامه أبواب الطلب، جلس يتمنى الأمانى ، ويستجدى من أكف الأوهام ما حرمه فى عالم الحقيقة ؛ ومنعه فى

غلبة الصراع على حظوظ الحياة ، على أن من خلل العاطفة ، والاسراف في التقدير أن ننظر الى ذلك الفنان الهائم المنطلق على سجيته تلك النظرة المبتذلة المهينة وهو يمنحك من فنه ومن ذات نفســه ، ولم يشترط عليك اجرا أو يشــق في طلب ؛ تاركا ذلك لفضل أريحينك ؛ وكرم عواطفك ؛ مكتفيا باللقمة يسد بها لهاته ؛ أو بالكسرة يدسـها في مخلاته : أو بالمنحة تجرى بين أصابعه ؛ هذا فى الوقت الذى تكبر فيه صـــنيع ذلك المغنى المحترف ؛ وهو الذى يساومك على فنه وطربه . ويماكسك مماكسة السوقة على غنائه وأدائه ؛ ولعمرى وعمرك متى كان الفن الأصيل سلعة تعرض في معارض البيع والشراء ؛ وبضاعة تخضع لأسلوب المساومة فى الأخذ والعطاء ؟

وعجيب كل العجب أن ننظـــر الى أولئـك الفنانين الهائمين فى فنهم نظرة المهانة والابتذال ، وهــم الذين خلفوا للفن أروع الآيات ؛ وأسدوا الى الانسانية أمتـــع الترانيم وأعذب الألحان .

فهوميروس لحن الشعر الباقى على الزمن ؛ ورائد الشعر والفن أمام كل شاعر وفنان ؛ لم يكن الا شيخا ضريرا رث الهيئة زرى الثياب ، يتكفف الناس بأناشيده ، ويمشي متنقلا بين القرى والمدن اليونانية متغنيا بمقطوعاته وأشعاره ؛ ومن مجموع هذه الأشــعار تألفت قصــيدتاه « الالياذة » و « الأوديسة » وانهما لدلالة المجد لليونان

فى القديم وفى الحديث ؛ وعلى مدى الايام ولقد مضى ما مضى من القرون والاجيال ومازال العالم اجمع يتغنى بامجاد اليونان ومفاخرها : لا كما رواها المؤرخون وتحدث بهـــا الكاتبون : بل كما ترنم بها ذلك الشاعر الضرير ؛الذى أفعمت نفسه روعة البطولة ؛ فانطلق يترنم بأمجادها فى أسماع الناس ؛ بل فى أسماع الزمان .

وهذه شعوب البلقان ، أتى عليها حين من الــدهر وهى هدف الفاتحين والمستعمرين ، حتى تحللت قوميتها وتخاذلت شخصيتها ، وضاعت معالمها العريقة تحت سنابك الخيــل المغيرة ، فلم يحفظ للبلقانيين تاريخهم ولغتهم الا طائفة من العميان المتسولين ؛ كانوا يتوارثون نظم الاغانى والأناشيد ، ويحذقون توقيعها على الناى والرباب،ويطوفون بالقرى والدساكر ، يحدثون أبناء قومهم حـــديث الزمن الغابر ، ويروون لهم وقائع بطلهم « ماركو » صـــاحب الخنجر الذهبى الذى كان يلبس جلد الـــذئب ، ويركب الجواد « شاراتز » فيفرق جيوش الأعـــداء ؛ ويخلص الأسرى من العناء ؛ على نحو ما نعرف من مظاهر البطولة فى قصص عنترة والمهلهل وبنى هلال ؛ ويرى الباحثــون أن أغانى أولئك العمــــان وأناشـــيدهم هى التى حفظت للبلقانيين تاريخ أسلافهم ؛ وقصص أبطالهم ، وصـــانت لغاتهم من الضياع والنسيان .

وماذا فى الأدب العربى غير سفر ألف برسم أمير ؛ أو

كتـاب كتب على شرط وزير ، والا روائع القصـيد وآيات الشعر أنشدت طلبا للعطاء فى ساحات الملوك وعلى أبواب الخلفاء ؟ وهذه مقامات الهمذانى والحريرى ، وأكثر ما فيها من مادة فنية يقوم على حيل أهل الكدية وبراعة العباقرة فى صناعة بنى ساسان .

وهل تعلم أن الشاعر الكبير أبا عبادة البحترى كان فى مطلع حياته يطوف بالأسواق فى أسمال خلقة ، وفى يده مخلاة ؛ فينظم الأشعار لباعة الخضر والبقول والفاكهة ينادون بها على سلعهم فى الناس ويأخذ الأجر على ذلـك ما يمنحونه من فضل سلعهم وبضائعهم فلا يعود الا وقد امتلأت مخلاته بما يشتهى ويريد ؟

ولعل صنيع الشاعر الأندلسى أبى عامر بن شهيد كان أعجب وأغرب ؛ اذ كان يجلس فى قرطبة ـ وهو ما هو مجدا وحسبا وعلما ـ يصنع الأشعار للشـحاذين اعانة لهم على نيـل مآربهم عند الناس ؛ واستدرار عطف العامة على حالهم .. وفى قصة « النوابع والـزوابع » يتحدث ابن شهيد عما كان يقع له مع هؤلاء الشحاذين فيقول : « وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر مما يخبط العامة والخاصة بسؤاله ؛ فيصادف منا حالا لا تـسـع له فى كبير مبرة ؛ فنشاركه ونعتذر له ؛ وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشـايخ القصابين فاذا قارنت أسماعهم ومازجت أفهامهم ، در حلبهم وانحلت عقدهم وجل

شخص ذلك البائس فى عيونهـــم ؛ فما شئت اذ ذاك من خبرة وثيرة يحشى بها كمه ؛ ورقبة سمينة تدس فى مخلاته وتينة رطبة يسد بها حلقومه فلا يكاد البائس يستتم ذلك حتى يأتينـــا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنـــا يمسحها ، راجيا فى أن نكشف له السر الذى حرك العامة فبذلت ما عندها له ، وبادرت برفدها اليه ؛ وتعليمه ذلك النحو من الشحذ لا نستطيعه ، لأن هذا الذى يريد منا هو تعليمه البيان ، وبين فكره وبينه حجاب ، ولكل نوع من الناس ضرب من الكلام ، ووجه من البيان ... »

وفى كل فن من معارض القول سر من أسرار البيان يصله بالنفوس ، ويستفز الوجدانات بالانفعال ، وليس ذلك بمقصـــور على الفصـــحى وحدها ، وانما هو كذلك فى الكلام الملحون ، وفى طرائق التعبير بالعامية ، وانـك لتجد من هذا فى أغانى أولئك الفنانين الهائمين ، اللمحة البارعة تهز عطفك ، والمفارقة الرائعة تستخف طربك ، والقصة المؤثرة بوقائعها وغرائبها يجرى بها الصـــوت الشجى المبحوح فى نغم البياتى هادئا لينا ، وكأنه بهـذا يعرب عن معانى الاستسلام لأحداث الزمان القاســـية ، وتقلبات الأيام العاتية ، وصنيع الدهر الذى طالما هدم كل شامخ مكين ، وفى أحيان نراه ينطلق عاليا تنتفـــخ به الوداج السائل فى حدة وشدة ؛ وكأنه بهذا يفصح عما فى نفسه من الغيظ والحنق ، اذ ينادى ولا سميع ، ويدعو

ولا مجيب ، وانه لتعبير عن واقع الحال ، وليست البلاغة ٠٠ كما قالوا الا التعبير عن مقتضى الحال ٠

نجد هذا كله فى أغانى هؤلاء الفنانين ، ونجـد الى جانبه صورة للبيئة الشعبية فى المجتمع المصرى يتجلى فيها كثير من نوازع هذه البيئة واتجاهاتها ، اذ أن هذه الأغانى تدور فى موضوعاتها ومعانيها على تملق العواطف واثارتها ، سواء بالضرب على وتر الـــدين ، أو بالوعظ بأحداث الزمان وحوادث الأولين ؛ أو بتلقف النـــوادر وفكاهات المضحكين ، أو بترديد أدوار العشق والغرام وقصص المحبين ، الى آخر تلك المغانى التى تجد الصــــدى والتجاوب فى نفوس السامعين ، وفى كل هذا يجد الباحث ألوانا من الأسى والحزن ، وألوانا أخرى من فن الطـــرب والضحك ومن ثم كانت تلك الأغانى الهائمة من أهم فنـــون « الفولكلور » الذى يعنى الباحثون بدراســـته ، وتقصى مراميه ودلائله ٠

على أن فى هذه الأغانى ناحيـــة جديرة بالتقصى والدرس والنظر والتحليل ، وأعنى بها ذلك القصص الذى يردده أولئك الفنانون بألحانهم وتوقيعهم ، وكله يدور حول المعجزات الدينية ، وخوارق الأولياء وكراماتهم ، فمن أين انتهى اليهم هذا القصص بوقائعه وغرائبه ؟ وماذا له من المصادر الأصيلة ، والرواية الصحيحة ؟ والى من يرجع صنعه وحكايته ؟ وما مدى صلته بالبيئة الاسلامية ،وأثره

فى نفسيتها ؛ فى كل هذا يجد الباحث أمامه مجالا فسيحا للدرس الطريف والتحقيق الممتع ، ويجد كثيرا من المظاهر النفسية والاجتماعية التى عكسها هذا اللون من الفن على حياة البيئة الشعبية ، والتى يجب أن يمسها البحث الحديث الذى يعنى بتفسير كل شىء ، والتعليل لكل شىء .

والفنانون الذين يحترفون ذلك الفن الهائم طوائف ، ولكل طائفة خصائصها فى المظهر ، وطرائقها فى الأداء؛ ولها أغانيها المأثورة ، ومعانيها المتوارثة ؛ فمنهم المداحون الذين يوقعون مدائحهم على نقرات الدف ، ومنهم المنشدون الذين يرتلون أناشيدهم وقصائدهم على منعطفات الطرق، ومنهم الذين يغنون على الأرغول .. ولأجل أن نفصل الكلام فى كل ما قدمنا ، رأينا أن نقسم أولئك الفنانين الى طوائف ، وأن نخص أغانى كل طائفة منهم بالكلام على حدة. والى الفصل القادم حيث نسير فى موكب المداحين .

المداحون

لتلك الأيام الحلوة النضرة ، أيام الحيـــاة الأولى في القرية اذ كنا نعيش بأحلام الطفولة البريئة ، وأماني الصبا الغرير ؛ فليست الدنيا أمامنا الا ميدان لهو ومرح نستبق اليه بدافع الغريزة التي تحس ولا تعرف ، ومـا كان يتصباثنا ويشوقنا من ذلك مثل المداح في موكبه ، وهو يتنقل في حارات القرية من باب الى باب مترنما بأغانيه على نقرات الدف في وجد وهيام ، فما نزال نتابعه بأبصارنا وأسماعنا حتى نهاية الشوط ، ثم ننثني عنه ونحن نردد ما وعت الذاكرة الغضة من قصصه وأغانيه •

وللمـــداحين في القـــرى مواســـم ينتظـــرونها ويحتشدون لها وهي مواسم الحصاد للزرع اذ تكـــون الدور عامرة ، والنفوس قريرة راضية ، وأبناء القـــرى أسمح ما يكونون بالرفد لكل وافد ؛ وبالعطاء لكل قاصد حينئذ ترى مواكبهم في القـــرى متواصلة ، فلا تشرق الشمس على قرية الا وصوت المداح يجلجل في جنباتها ،

أما فيما دون هذه المواسم فقليلا ما تقع العين على واحـد منهم ، وهـذا في العاده يكون قليل البضـــاعه ، رديء الصناعة ؛ رقيق الحال ؛ لا ينظر اليه أهل الحرفة نظرة اعتبار ، اذ يكون في مظهره أقرب الى المتســول منه الى المداح ٠

والمداحون لا يعتبرون أنفسهم شحاذين ، يطلبــون العطاء بالاستجداء والتسول ، ولكنهم يقدرون شــأنهم أكرم من هذا وأعظم ، ويعتبرون أنفسهم أصحاب صناعة شريفة ، وأهل مهمة دينية يزجون بها الى الناس مواقع العبرة والموعظـة ، والأفادة بقصص الأنبيــاء ، ومناقب الأولياء وكرامات الصالحين٠

ولهذا نراهم أرقى هذه الطائفة مظهرا ، وأنظفهـم هيئة ، فهم يبدون عادة في أثواب لائقــة وقماش مليح وقليل من لا تكون له دابة يتنقل عليها من قرية الى قرية، ويحملها ما يجمع من عطايا المانحين ، وانما سمي هؤلاء بالمداحين لأن بضاعتهم كلها في مديح الأنبياء والأولياء ، والتحديث بمآثرهم ومناقبهم ؛ ولانهم في العادة يفتتحون قصصهم ويختمونها بمدح طه الرسول ٠

وللمداحين في أدائهم طريقة لا يشــاركهم فيهـا غيرهم ، وليس لها شبيه في أى لون من ألوان الفنـون الشعبية ، وهى أقرب ما تكــون الى طريقة الانشــاد والترتيل، يعتمدون فيها على براعةالتوقيع وحسن التقسيم

آكثر مما يعتمدون على نداوة الصوت وطرب التنغيم ، ولهم في ضبط الايقاع على نقرات الدف براعـــه لا ادرى عمن أخذوها ولا ممن وصلت اليهم في القـــديم ، والدف هو الأداة الوحيدة التي يعتمدون عليها في ذلك ، وهو رق من جلد مشدود على اطار من خشب ، وهو شبيه بالرق الذي يستعمل لضبط النغمات في تخوت الموسيقى والغناء .. ولكنه يخالفه باتساع اطاره ، وليس في جوانبـــه فتحات بها جلاجل أو صاجات ، ومن ثم كان أصم الصوت وليس بذى أثر كبير في الطرب ، وانما الغاية منه ضبط التوقيع وتمثيـــل المعانى فى الأداء .. وقد كان العرب يستعملون الدف في اذاعة المحامد والمآثر ، وشاع استعماله بين النادبات في البكاء على الموتى وتعديد محامدهم ، وقد اتخذته بعض الطوائف الصوفية ، لضبط حركات السير في مواكبها ، وحركات الذكر في محافلها ؛ وهو كذلك عندهم الى اليوم .

القصص الذى يتغنى به المداحون :

والجدير بالبحث والنظر ذلك القصص الذى يتغنى به أولئك المداحون ، فمن أين كانت لهم مادة ذلك القصص؟ وكيف تم تنسيقه فى ذلك النظم الغنائى ؟

الذى اراه أن المداحين قد ورثوا فى ذلك تراث القصاص

الذين شاع أمرهم فى المجتمع الاسلامى منذ القرن الأول للهجرة ، فكانوا يقصـــدون الى المســاجد والمحافل لوعظ العامة بالقصص الدينى ومايتلقفونه فى هذا السبيل من الآثار المصـــنوعة والأحاديث الموضـــوعة ، والاسرائيليات الشائعة وكـــل مايرون فيه قبولا ورواجا عند الجمهور ، المتلهف الى موارد العزاء والتأسى ، ثم تجـــاوزوا دائـــرة المساجد والمحافل فخرجوا الى الطرقات ، وآثروا الجلوس فى المنعطفات ، وقد بلغ من شأنهم فى بعض العهود أن كانوا يلهون العامة عن أعمالهم ، ويثيرون العصبيات فيما بينهم فكان هذا مما اضطر الحكام الى مطاردتهم ، وتحريـــم القصص عليهم ، حتى اذا كسدت بضاعتهم فى المـــدن انحدروا الى القرى يزجون ما عندهـــم الى أهلها ، ولكن بأسلوب ملائم ، وبطريقة موافقة ؛ ومن ثم كانت طائفـــة أولئك المداحين .. فالمادة فى هذا القصـــص الذى يتغنى به أولئك المداحون هى من فيض البيئة الاســـلامية فى دمشق وبغداد والقاهرة وغيرها من العواصـــم الزاهرة يوم كانت تفيض على العالم بألوان الثقافات المختلفـــة ، وطرائف القصص المتنوعة ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن جانبا من هذا القصص قد صنع فى مصر ، وهو الجانب الخاص بمناقب الأولياء وكراماتهم ، ولهذا لا نرى فيه الا الحديث عن الأقطاب المصريين أمثال السيد البدوى وابراهيم الدسوقى ثم لا شك أن هناك أثرا آخر من آثار البيئة

المصرية فى ذلك القصص وهو نظمه زجلا باللغة المصرية الدارجة . ولكن فى أى عهد بالتحديد تم هـــذا النظم ؟ وهل قام بذلك شخص معين ؟ أو كانت هناك طائفة تحترف نظم هذا القصص وما اليه ؟ هذا ما يعز على الباحث أن يقف فيه على يقين ، لأن القدماء استهانوا بهذا الفن ،ولم يعنهم تدوين أصوله فى شيء ، لأنهم تحرجوا من أن يكون فى ذلك غلبة للعامية على الفصحى ·

القصة فى الأدب الشعبى :

والحق ان الطريقة فى نظم هذا القصص تعتبر طريقة فريدة فى بابها . وفنا من فنون الزجل قائما بذاته ، وأنها لتدل على حاسة فنية دقيقة عنـد أولئك الزجالين الذين آثروا هذه الطريقة وابتدعوها ، ذلك لأنهم آثروا الأوزان التى تنسجم مع الترتيل والتقســيم فى الأداء ، والتى تسير مطاوعة لينة فى التطريب بالنغم ، وقد يوردون القصة على روى واحد ، ولكنهم فى الغالب يؤثرون أن تكــون أدوارا ثنائية ، تجمع بينها وحدة القافية في آخر كل دور ثم هم يلتزمون ربط كل دور بسابقه ، برد صــدر كل دور على عجز الدور السابق ، عكس ما هو معروف فى الشعر عند علماء البديع برد العجز على الصدر ، وهذا التصنيــع يزيد الأداء طلاوة وحلاوة ويثير عند السامع كوامن الانفعال

والارتياح ، مثال ذلك قولهم فى استهلاك قصة « سبارة والخليل وهاجر واسماعيل » :

أمدح اللى شع النور من مقامه
القمر والشمس ما أحلى لثامه
كل ما أمدح وأكرر فى كلامه
يستريح القلب حمال الأسية
يستريح القلب اللى كان ضنانى
من جواهر فن ينظمها لسانى
اسمعوا ياذى العقول فىدى المعانى
قصة خليل الله وسارة بالسويه

كان خليل الله وسارة فى صباهم
مبدعين فى الحسن والمولى عطاهم
مدة الأيام ما بلغوا منــاهم
م الدرارى لا صبى ولا صبية

م الدرارى لا صبى يا بن الأكابر
يا خليل الله لأمته آنت صابر
بس طاوعنى وازوج بهاجر
انها حرة شريفة مهتدية

وعلى هذا النسق يتم نظم القصة وهو الذى آثره أولئك الزجالون فى نظم هذا القصص ، أو الكثير منه .

ومن العجيب أن الذين أرخوا للزجل لم يعنهم أن يشيروا الى هذا القصص الزجلى ، ولا أن يشرحوا هذه الطريقة الفريدة فى نظمه ، مع أنها ناحيه خليقه بالذكر . أليست بدليل على أن العامة قد سبقوا الخاصة الى القصة المنظومة ؛ وأن الأدب الشعبى قد فاز بنصيبه من هذا . على حين كان الأدب العالى يتعثر فى هذا الطريق ؟

على أن هذا اللون من القصص الشعبى قد استوفى غايته ووقف عند حده فهو لا يتجدد ولا يتطور وهو لا ينمو ولا يزيد ، ذلك لأنه كان ابن البيئة التى نشأ فيها ، فكل ما يردده المداحون انما هو من ذات تلك البيئة ، ولا جديد فيه ، الا أن هذا القصص المردد المكرور لا تخلق جدته أبدا عند أبناء القرى فى ريف مصر . وهم لا يملون أبدا من ترديده وتكراره ، ذلك لأنه يمس بوقائعه ومراميه كثيرا من المعانى المتصلة بنفوسهم ، والماثلة دائما فى حياتهم .

قصة أيوب لما ابتلى :

فمن ذلك قصة « أيوب لما ابتلى » ، وهى قصة الصبر على ما قدر الله من البلاء والضر ، وهى أكثر القصص شيوعا بين الناس ؛ وذيوعا فى فن المداحين ؛ وقصة أيوب فى ابتلائه وصبره يتضمنها سفر من أسفار العهد القديم ؛ وهى مذكورة أيضا فى القرآن الكريم ، والأصل فيها موقف الانسان من القضاء والقدر ، ويرى بعض

الباحثين أن هذه القصة كما وردت في العهد القديم من أقدم القصص الشعري وان لم تكن أقدمه ، ولـــكن المداحين يسردونها على نمط مؤثر بمواقفه ومفاجآته ، فهم يذكرون أن أيوب ابتلى بعـــد العز الـكامل ، فصبر على بلـــواه سبع سنين كاملة . كل ســنـــة كانت أشق وأقسى من سابقتها ، حتى نفر منه أهله وأحبــــاؤه ، ولم يبق على الوفاء له الا زوجه : وهي ابنة عمه أيضا ؛ وكانت غاية في الحسن والجمال ؛ ولها شعر طويل يضرب الى قدميها يتحدث بجماله الناس ، وطالما راودها شياطين الانس عن حسنها ، فأبت الا الوفاء لزوجهـــا ؛ وخرجت معه الى البرارى والقفار حيث اضطر أن يعيش بعيدا عن الناس ، وبلغت الشدة بزوجها وبها الغاية ، حتى أخذت تتلمس القوت فعز عليها القوت ، فاضطرت أن تجز شعرها الجميل الغالى وتبيعه في الســـــوق مقابل قرصين من الشــــعير ولكنها حين عادت تبحث عن زوجها في مكـــانه بالقفر لم تجده ، ووجدت بدلا منه رجـــلا كامل الصحة والرواء ، فسألته عن شيخ مبتلى الجسم لا يقدر على الحركة تركتـــه في ذلك المكان ، وتبدى لها الخوف من أن تكون الوحوش قد افترسته ، فيسألها الرجل عن شكله ؛ فتقول انــه يشبهك الى حد كبير ولكنه مبتلى الجسم ، فيعود ويسألها مرة ثانية ، هل تقبله زوجا لها وتدع ذلك الشيخ المبتلى الذى لا خير فيه ، ولكنها تجيبه بأنها لا ترضى بابن عمها

المبتلى بديلا ، وأنها لا تجد السعادة الا الى جانبه . وهنا ينهض أيوب الى معانقتها ؛ ويكشف لها عن حقيقته ، ويخبرها أن الله أنعم عليه اذ وجد نباتا فى البرية أسمه « الرعراع » فاغتسل به فشفى لساعته . وبدا كما تراه سليم الجسم ، فيضرع الاثنان فى شكر الله على ما أنعم ، ثم تخبر أيوب كيف اضطرت الى أن تبيع شعرها الطويل الجميل فى مقابل قرصين من الشعير حتى توفر له القوت . وتخشى أن ينفر منها بعد أن فقدت شعرها الذى كان على رأسها تاج الزينة والجمال ، فيدعو أيوب ربه فيرد عليها شعرها كما كان ، ويعود الزوجان بفضل الصبر الجميل والوفاء النبيل الى ما كانا فيه من السعادة والاطمئنان .. ومن من أبناء الريف فى مصر لا ينشد حديث الصبر والوفاء ، أليس الصبر هو الدواء الوحيد الذى ظل يتداوى به أولئك الفلاحون على مدى السنين من علل الفقر والشقاء والحرمان ، وظلم الاقطاع والكشافين والمحتسبين والباشوات فكل منهم فى الحقيقة أيوب فى بلواه . أجل .. فلا تعجب اذا ما رأيت أولئك الفلاحين الصابرين من أبناء الريف يفتحون آذانهم فى شغف ولهفة ويعبسون ساهمين مطرقين ، والمداح يروى لهم قصة أيوب على نقرات الدف قائلا :

ياما ينول الصابرين بصبرهم
الى صبر نال المنى والمغفرة

اللى صبر نال المنى ويا الهنا
والل غلب من ايه يا هلترى

يا ما جرى لأيـوب أول مقامه
وبنت عمه على البلاوى صابره
وبنت عمـه على البـلاوى تملكت
ما يوم شـكت منه ولا الخل درى

وان الدموع لتنحدر من عيونهم فى حرقة والمداح يصف لهم ما قاساه أيوب من الضر سبع سنـوات كاملة فيقول :

أول سنـة يا أيوب قلنا تنقضى
قلع ثياب العز بعـد الغنـدره
قلـع ثياب العـز من بعد الهنـا
نايم على فرشـه حالاته معبرة
رابع سنة طـرحوك يا أيوب بالفلا
سبع مـرات ع الجبين مسـطرة
خامس سـنة أيوب بقى رق الغـلال
والدود من جسمه طرح وملا الثـرا
تنط الـدودة تيجى فى الخـلا
يلمهـا بأيده الشريفة الطاهـرة
يقول لها يا دودة بتكلى قسـمتك
رب اجعـل للصـابرين المغفـرة

وهكذا يمضى المداح فى رواية القصة على نحـــو ما أوردناه عليك ، حتى ينتهى من وصف ما لاقته «رحمة» زوجة أيوب من الشقاء والعناء فى الوفاء لزوجها ، وكيف أسبغ الله الشفاء على أيوب بعد أن اغتسل بنبات «الرعراع» ونالت « رحمة » المنى بالصبر والوفاء :

وانبنى لهـــا قصر ع البحرين وافـــر
والبنات يتفرجوا على القصـــور النيرة
قالوا دا قصر مـــين يا بنـــات ؟
دا قصر « رحمة » على البلاوى صابرة

وأخيرا يختتم المداح القصة قائلا :

واختتم كلامى بالصلاة على المصـــطفى
يكـــون لنـــا شـــفيع فى الآخرة

والذى لا شك فيه أن قصة أيوب كان لها أثر بعيد المدى فى البيئة الشعبية ، فمازال أبناء الريف يتبركون بنبات « الرعراع » الذى تقول القصة ان أيوب اغتسل به فشفى ، ويعتقدون أن الاغتسال به يشفى من الأمـــراض الجلدية ، وهناك كثير من الاغانى والمواويل التى تدور حول القصة ، وفيها الموال السائد الذى مطلعه :

آيوب لما ابتلى ومن كان بلى ايوب

قصة ابراهيم وسارة :

ومن ذلك قصة « سارة والخليل وهاجر واسماعيل » وهى كذلك قصة مذكورة فى التوراة ، وقد أوردها القرآن

الكريم بالتفصيل ، ولكن المداحين يروونها بزيادات وتفصيلات مما يروج عند العامة ويصادف لديهم القبول ، وتمثل القصة سارة ونبى الله الخليل حبيبين منذ الصبا ، وزوجين اجتمعت لهما كل معانى الاخلاص والصفاء . ولكن متى تم الصفاء لانسان فى هذه الحياة ؟ فقد شاب هذا الصفاء بين الزوجين الحبيبين ألم مرير ، اذ كانت سارة عقيما لا تنجب ، فلم يشأ ابراهيم أن يتزوج ايثارا لها واخلاصا فى حبها ، وأرادت هى أن تكافئه على هذا الاخلاص والحب ؛ فحسنت له التزوج بجاريتها هاجر ؛ فأخذ يمانع فى ذلك كل الممانعة ، حتى لا يشرك فى حبها أحدا ، وأخذت هى تلح عليه فى هذا حتى نزل على رأيها وتزوج من هاجر، ولم تلبث هاجر أن حملت فتحركت الغيرة فى نفس سارة، وأصبحت لا تطيق أن ترى جاريتها التى صارت ضرتها ، فاصرت على أن يخرج بها ابراهيم الى الجبال المقفرة ، ويتركها نهبا للوحوش الكاسرة ، ويحاول ابراهيم جاهدا أن يخفف حدة الغيرة فى نفسها ، ولكن على غير جدوى ؛ فيضطر الى أن يخرج بهاجر الى بلاد العرب ، ويتركها فى القفر الموحش ، وهناك تلد اسماعيل أبا للعرب ؛ ويشاء الله أن يكون مولده فى هذا المكان مولدا لأمة ولحضارة، فمن تحت قدمه نبع ماء زمزم ، وتجمع العرب يطلبون الرى من ذلك الماء .. ثم كان أن صنع الزمن صنيعه واذا الصفاء يعود الى النفوس ، ويشتد الحنين بابراهيم وسارة الى هاجر ومعرفة ما تم فى أمرها ، فيخرجان للبحث عنها

حيث تركها ابراهيم عبر السنين الماضيه . وكان ان التقى ابراهيم بابنه اســـماعيل ، ثم كان ان راى ابراهيم أن يذبح اسماعيل وحيده في المنام ، ويصبح الصباح فيشحذ سكينه ويهم بذلك ، لولا أن هبط جبريل وافتداه بـذبح عظيم ومن هنا كانت شريعة التضحية .

وهكذا تمضي القصة من بدايتها الى نهايتها . سلسلة من المفاجآت القاسية ، وكل مفاجأة تنتهى بالفرج بعـد الشدة ، ومن في شعب مصر لا ينشد الفرج بعد طول ما عانى من شدائد الأيام وأهوال الزمان ؟

وفي قصة ابراهيم وسارة فصل تتجدد به المناسبة دائما وهو الفصل الخاص بذبح اسماعيل وافتدائه ، ففى عيد الأضحى من كل عام تتمثل صورة هذا الموقف لاذهان المسلمين ، وينتهز المداحون هذه المناسبة ويطوفون بالقرى يحدثون الناس بهذا الفصل من القصة فى تصوير قـوى بارع يهز النفوس هزا ، وتفصيل خيالى عنيف يتجاوزون به حدود ما جاء في القرآن والتوراة عن هذه القصة ، ومن العجيب أن خطباء المساجد يخطبون الناس صباح العيد بقصة اسماعيل وافتدائه لا كما جاءت فى القرآن والتوراة ، بل على ما تضمنته القصة الشعبية من تفاصيل ، وما يرويه المداحون من الخوارق ، وبهذا تتمثل الصورة الكاملة للقصة في أذهان الناس ، وتتخذ من اعتقادهم موقع اليقين .

وفي الحق أن قصة ابراهيم وسارة ، وهاجر واسماعيل، تعتبر من أغنى القصص الشعبى بالمواقف الدرامية ، واللمسات النفسية العميقة ، والاعتراك العاطفى العنيف الذى يضفى على القصة جوا مسرحيا كاملا ، وقد انفع كثير من الكتاب الأوروبيين بهذه القصة فتناولوها تناولا فنيا، وحاولوا توضيح ما تضمنته من المشكلات العاطفية التى ما زالت تتجدد فى نفوس الناس ، ولكن أحدا من الكتاب العرب لم يحاول أن يتناول القصة على هذا النحو ولعلهم تهيبوا ذلك بدافع الوازع الدينى ·

قصة الجمل والغزالة :

ويغنى المداحون جملة من القصص التى تتصل بالسيرة النبوية ، وتروى بعض المعجزات والخوارق التى تنسب الى النبى والى أصحابه ، على أنها لا تتصل بسند صحيح عند علماء الحديث والآثار ، ورواة التاريخ والأخبار فعلماء الدين يردونها وينكرونها ؛ وينظرون اليها من هذه الناحية نظرة استهانة وامتهان ، وليس موقع الصدق فى هذه القصص مما يعنينا هنا ، ولكنا نعرض لها من الناحية الفنية ، وفيما تمثله من المعانى الانسانية ؛ وما تصوره من الحقائق النفسية ، وما تعرضه من المظاهر والدلائل الماثلة فى البيئة الاسلامية ، وهى فى هذا كله جديرة بالنظر والعرض ، والدراسة والبحث ·

وأكثر هذه القصص ذيوعا وشيوعا قصة « الجمـــل والغزالة » وهي قصة موضوعة قطعا ، ويبدو أنها وضعت في البيئة الاســــلامية بعد أن وقف العرب على أحاديث الحيوانات ومحاوراتهم في آداب الهند وقصصهم ، وتتألف هذه القصة من منظرين متشــــابهين ، يمثل الدور في المنظر الأول الجمـــل ، وتقوم بالدور في المنظـــر الثـــاني الغزالة ، والغاية في الدورين واحدة يراها القارىء واضحة فيما نعرض عليه من وقائع القصة .

تبدأ القصة فتذكر أن النبي كان جالسا مع الصحابة ، فمثل بين يديه جمل أسقمه المرض والهزال ، وأخذ يشكو اليه ويستجير به ، فقد كان في شبابه قوى العزم ، ينهض بحمله مهما يكن ثقيلا ، وكان صاحبه يبالغ في اكرامه ويفتخر به عند قومه وأصحابه ؛ ثم نزل به المرض فضعف حاله وبدأ هزاله ، وأصبح لا يصلح لعمل ، فعزم صاحبه على أن يبيعه للجزار ويخلص منه ، فاجتمع عليه من هـــذا همان : هم المرض وهم الخوف من الذبح واســــتبدت به حسرتان ، حسرة على قوته وشبابه وحسرة على صاحبه وقلة وفائه ، ولو كان له قلب رحيم لأشفق عليه في مرضه ، وزاد في العناية به أضعاف ما كان يبذله له وهو قوى ، فطيب النبي خاطره ، ووعده بأن يجيره من جحود صـــاحبه ، ويخلصه من همومه وأحزانه ، ثم نهض عليـــه الصـــلاة والسلام ونهض الصحابة معه الى بيت اليهودي صاحب

الجمل ، وطرق بلال الباب ، فخرجت جارية مليحة : ولكنهـا مفقوءة العين ، فسألها النبى عن سيدها فقالت هو بالبيت ، فسألها عن السبب فيما نزل بعينها ، قالت انه أثر لطمة عاتية من سيدها فمســح عليها النبى فعادت عينها كما كانت فانطلقت تزغرد وتخبر سيـدها بما جرى ، فقال سيدها ، انه لابد أن يكون هذا ساحرا أتى الينا ليخدعنا بسحره ثم يخرج فيحدثه النبى بقصة الجمل ويطلب منه أن يجيره من شكواه وان يعود الى سابق بره به ، ولكن اليهودى يرتاب فى أن الجمل ينطق ويتكلم ، ويقـول ان نطـق الجمل يا محمد « أنا أعتقه وأصلى وأصوم » ، ثم يتغير المنظر فجأة فى القصـة ، اذ ينظـر النبى فيرى « غزالة » فى شرك اليهـودى تبكى وتستغيث ويسألها النبى عن حالها : فتقول ان اليهودى صادها وهى تبحث عن القوت لأولادها ، وقد فارقتهم ثلاثة أيام كاملة وهم على الطوى ، وتسأله أن يضمنها عند اليهودى حتى تذهب فترضع أولادها وتعود .

وبعد حوار عنيف بين النبى واليهودى يقبل اليهودى أخيرا ضمان النبى للغزالة، على أن تذهب لرؤية أولادها وتعود وهو موجود ، وتذهب الغزالة الى أولادها وتحدثهم عن حالها ، وتتعجلهم فى أن يرضعوا حتى تسرع بالعودة الى اليهودى لأنها جاءت بضمان النبى ، وهنا تبـدو فى القصة وثبة من وثبات الخيال ، اذ ما كاد أولاد الغزالة

يعرفون ان أمهم جاءت اليهم بضـــمان النبى حتى يحرموا لبنها على أنفسهم ، ويطلبوا منها أن تسرع بالعــودة حتى لا يبقى النبى المصطفى مربوطا بضمانها عند يهودى فظ غليظ القلب ، فتودعهم أمهم وداعا أليما يثير كوامن الشجون . ونعود الى حيث كانت فى أسر اليهودى ، ولكن على الرغم من كل هذه الدلائل فان اليهودى لا يرق ولا يلين . ويصر على أن يتــكلم الجمــل حتى ينظر فى حاله . فما يتم كلمته حتى ينطق الجمل بين يدى النبى ؛ فيروى قصته ، ويبث شـــكواه . فلا يلبث أن يذعن ويشهد ان محمدا سيد المرسلين ؛ وتنتهى القصة بأن يسلم اليهودى ويحسن اسلامه ثم يطلق الغزالة من اساره ، ويعتق الجمل من سوء حاله .

اليهود فى القصص الشعبى :

هذه هى قصة « الجمـــل والغزالة » وهى أكثر مـا يتغنى به المداحون ، ونكتفى بايرادها مثلا ونمطا من ذلك القصص الكثير الذى يغنونه عن السيرة النبوية ، والاشادة بمكارم النبى صلى الله عليه وسلم ومحامده ، مثل قصة « اليتيم المظلوم » وقصة قميص النبى ، وقصـــة « عامر اليهودى » وقصة « انشقاق القمر » الى آخر ما هناك من القصص التى يطول سردها واستيعابها ، على أنها متشابهة

فى وقائعها وفى مقاصدها ، وهنا لابد من أن أشير الى معنى مشترك يلاحظه الباحث فى تلك القصص . وهـو معنى له مغزاه ودلالته : ذلك أن البطل فيها غالبا ما يكون يهوديا ، ودائما تصف هذه القصص اليهودى بالعنـاد والمكابرة والخداع والمخاتلة والشح والتقتير ، وهى صفات أبرزها « شكسبير » ابرازا فنيا يثير الاعجـاب فى روايته المشهورة « تاجر البندقية » على أن قصصنا الشعبى أروع وأمتع وأحفل العجائب والمفارقات عن الشح اليهودى وما طبع عليه هذا العنصر من ايثار المال على كل شىء فى الحياة حتى الشرف والكرامة ، وسواء أكانت هذه القصص قد وضعت فى زمن متقدم أم فى زمن متأخر ، فانها بهذا تمثل حقيقة من نواحى الدور الذى اضطلع به ذلك العنصر العنيد المتشبث بتقاليده فى البيئة الأسلامية ، وانها لحقيقة لما تزل قائمة لم تغير الأيام منها أى شىء .

قصة معاذ بن جبل :

وتأتى بعد هذه الطبقة من القصص التى تتصـل بالسيرة النبوية ومعجزات النبى طبقه أخرى تتصل وقائعها بالصحابة والتابعين مثل قصة « معاذ بن جبل فى بلاد اليمن » . وهذه القصة قد تفنن فيها القصاص ، وتناولوها فى أسلوب جاوزوا به حقيقة التاريخ الى لون من الفن يجعلها ألصق بالقلوب ، ومعاذ بن جبل صحابى جليل ؛

كان من الشباب الذين سبقوا الى الاسلام وصدقوا فيه وحضر المواقع كلهـــا ، وكان من أفقه الصـــحابة واعرفهم بالحلال والحرام ، وقد بعثه النبى الى أهل اليمن ليعلمهم الدين ويهديهم الى تعاليم الاسلام ؛ فبقى هناك حتى انتقل النبى الى الرفيق الاعلى ، وقد ركز القصاص اهتمامهم برحلة معاذ الى اليمن ، وكيف آثره النبى واختاره لهذه المهمة العظيمه ، وكيف قصد معاذ الى أمه يودعها وهى شـــيخة كبيرة لا تطيق فراقه ولا ترضى له أن يفارق النبى وأن يبتعد عن مجلسه ، فيخبرها أن النبى هو الذى اختاره لذلك ، وانه لا يســـتطيع أن يخالف له أمرا ؛ فترضى وتطمئن ، وتخرج لوداعه ؛ وناهيك بوداع الأم لحبيبها ووحيدها ؛ وهى شيخة حطمتها السنون ، ولا تدرى هل تطول بهـــا الأيام حتى تجتمع به مرة أخرى أو هو فراق الأبد ..

على هذا النمط يمضى القصاص فى ايراد القصة الى آخرها فيحدثوننا عن اقامة معاذ فى اليمن ، ومعيشـــته بينهم ؛ وكيف أحبوه وتعلقوا به تعلقا كبيرا وكيف آثر أن يعيش على الكفاف فرفض كل ما عرضوه عليه من الأموال والقصور والمناعم وأبى الا أن يعيش من عمل يده .. ثم تنتهى القصة بوفاة النبى ويأتى الهاتف فى المنام الى معاذ ابن جبل ويخبره بذلك فى الحاح وتأكيد ، فيعود الى مكة فى حال من الحزن الأليم الممض ، ويقابل أمه وجميـــع أصـــحاب الرسول الذين حضروا وفاته ؛ ويسألهم واحدا

واحدا كيف كانت وفاة النبى ، وكأنى بالقصاص قد أرادوا أن يزيدوا من حرارة القصة وشدة تأثيرها فى النفوس ، فأطالوا فى هذه الناحية ، وهم يوردون فى القصة مقطوعات من الشعر على لسان معاذ والصحابة فى مدح النبى ، وهو شعر وضع لا شك فى عصر متأخر ، والقصة كلها وضعت فى عصر متأخر . ويبدو لى أنها وضعت بعد ذيوع قصة أبى زيد الهلال لأنها محاكاة لها فى النسق والرواية والانشاد .

أثر التشيع فى القصص الشعبى :

ومثل قصة « معاذ بن جبل » قصة وفاة سيدنا عمر وقصة « خاتم على بن ابى طالب » وهى قصة موضوعة ولا أصل لها فى التاريخ ، وتختص السلسلة العلوية من آل البيت بجانب كبير من هذه القصص التى تتحدث عن مناقب الحسن والحسين وزين العابدين وغيرهم ، ومن الواضح أن هذه القصص انما هى أثر من آثار التشيع للعلويين ذلك التشيع الذى كان له أثره العميق فى كل نواحى الثقافة الإسلامية ، ومن هذا المعين اغترف القصاصون والرواة ما شاء لهم الهوى والخيال مئات من القصص والروايات .

قصص الأقطاب والأولياء :

ثم تأتى بعد ذلك الطبقة الأخيرة من قصص المداحين. وهى طبقة خاصة بالأقطاب من أهل الولاية والبركة في مصر ، وأشهر هذه القصص « قصة السيد البدوى مع فاطمة بنت برى وما جرى بينهما من غرائب الأحوال » و « قصة الأميرة خضرة الشريفة وما جرى لها فى بلاد النصارى وكرامة السيد البدوى حين أتى بها من تلك البلاد » . وقد تحدثت عن هاتين القصتين في شيء من الافاضة والتحليل فى الكتاب الذى ألفته عن « السيد البدوى ودولة الدراويش فى مصر » ، وناقشت آراء المستشرق « جولد تسهر » وغيره من المستشرقين فى قصة « بنت برى » وأثرها فى حياة السيد ، فليرجع القارىء اليها .

ومن القصص التى تتصل بالأولياء وكرامتهم « قصة سيدى ابراهيم الدسوقي » وما جرى منه من العجائب والغرائب والكرامات « وقد كتب عن هذه القصة انها من « نظم ولى الله المجذوب الشيخ طاهر ابن يعقوب » وهى القصة الوحيدة التى قرنت باسم مؤلف من جميع تلك القصص ولكن يظهر انه مؤلف لا حقيقة له ، وأن هذا الاسم وضع على القصة للتشويق بقرائتها ، أما وقائع القصة فاغراق فى التهويل والمبالغة

الى أبعد مدى ، ولا يفوتنى هنا أن أقول لك انه على قدر ما يكون من التهويل والمبالغة فى وقائع القصص الشعبى على قدر ما يكون اقبال العامة عليه والشغف به ٠

فقصة ابراهيم الدسوقى تزعم أن مغاضبة وقعت بينه وبين أمه لأنها أنكرت حاله ، واستنكرت ذلك السلوك الذى يسلكه من الوجد والجذب ، والهيام وأراد الدسوقى أن يطمئن أمه على أنه يسلك سلوك العارفين بالله ؛ فحملها بين يديه وطار بها الى أطباق السماوات ؛ وأخذ يجتاز بها سماء الى سماء ؛ ويطالعها بمعارض الجنة والنار ؛ وما فيهما من طوائف المنعمين والمقربين ؛ فتسأله أمه عن أهل كل نار من النيران ، ولأى سبب يعذبون ، فيجيبها عن كل سؤال ؛ ويجرى فى ذلك حوار طويل مسلسل يستغرق وقائع القصة كلها ، ويتقصى كل ما يقع بين العصاة من المآثم والشهوات ، وكل ما هو شائع فى البيئة المصرية من الذنوب والهفوات ، مثل الغيبة والنميمة والفحش والسرقة والبغضاء ، ومن ثم جاءت هذه القصة ، وهى أروع ما تكون فى وعظ العامة ، وأقرب ما تكون الى قلوبهم فى الزجر والردع عن المعاصى ، وان مما يزيد فى التأثير بها سهولة التعبير ، وبساطة التصوير ، والمبالغة فى ابراز الوقائع مما يروج عند العامة ويشبع ميولهم ٠

وتعتبر قصة ابراهيم الدسوقى من أوثق القصص

الشعبى صلة بالبيئة الريفية ، فكل ما فيها من العادات والمشاهد والتعابير ممايقع فى القريه ويجرى على السنة القرويين ، ولعل السبب في هذا أن ابراهيم الدسوقى هو القطب المصرى الوحيد بين الأقطاب الأربعة من الأولياء : الجيلانى والرفاعى وأحمد البدوى ثم الدسوقى. بل ان أكثر الأولياء أصحاب القباب العالية والأضرحة المقصودة فى مصر ممن وفدوا عليها من الحجاز أوالعراق أو الأندلس وأقطار شمال أفريقية أما الدسوقى فمصرى صميم ، ولد فى القرية ونشأ بين أهلها ، وكان دراويشه وأتباعه كلهم من القرويين والفلاحين ؛ وقد عمل هؤلاء الدراويش والأتباع على تمجيد شيخهم ورفع مكانته وقطبانيته بين الأقطاب ، فبالغوا فى نسبة الكرامات والخوارق اليه حتى أنهم ليزعمون أنه كان صاحب سر باتع وهو نطفة في الأصلاب ، وأنه حفظ القرآن الكريم ، وحصل الفقه على المذاهب الأربعة ، ودرج فى طريق السالكين العارفين بالله ، وهو طفل لم يبلغ الفطام ؛ وكل هذا يرويه المداح فى قصة ابراهيم الدسوقى بعد أن يمهد لذلك بمقدمة طويلة يرتل فيها :

يا غفلان وحد ربك
وبالتقى عمر قلبك
ما تستعجلش على رزقك
دا عالم بالانسان

وربنا عليـــم وحكيـــم
محيى الحـــق وهو كريـــم
خلقنـــا فى خـــير ونعيـــم
كله وابن آدم بطـــران
يا ابن آدم تـــوب وارجـــع
ان فات منـــك يوم ما يعود
دا العمر له حـــد وحـدود
ولا دايـــم غير الرحمن

وبعد أن ينتهى المداح من تلك المقدمة الطويلة ، يأخذ في وصف ولادة الدسوقى ، وكيف فج النور ليلة مولده . ووقفت الأفلاك صفين ؛ ونصح الناصحون أمه :

فقالوا لها يا أم ابراهيـــم
افرشى له فرش عظيـــم
وأوعى له من كل لئيـــم
عين الحســـود تشعل نيران

ثم يتحدث المداح عن كرامات الدسوقى وهو طفل فيقول :

أمه قالت يا ســـامعين
لما كمـــل شـــهرين
فى حب أحمد طه الزين
قلبـــه تنور بالايمـــان
ابن ثـــلاثة ما أحـــلاه
ويعلم ربه كـــده حـلاه

وابن أربعة أهل الـــواجب
حفظ الأربـــع مـــذاهب
وعوده كالفـــرع الناشـــب
يذكر كريـم واحـد ديان
دا ابن خمســـة مكنـــه
حفظ الفرض مع الســنة
كمان شـــاف عز الجـــنة
يا الله الوفا على الايمـــان
دا ابن ستة يدعى سعيـــده
ويقـــرأ القـــرآن ويعيد
يتكفـــل به حى مجيـــده
يقابل النبى بالأحضـــان
دا بن سبعـــة للأمهات مجيد
يشاهد الكرسى والميـــزان
دا ابن ثمانية يا صـــلاح
علا وشـــاف أهـــل الأرواح
ويعطيـــه ربه المفتـــاح
وبعـــده أصـــل العرفان

وعلى هذا يمضى المداح فى سرد كرامات الدسوقى ، وما كان من محاورة أمه له ، وانكارها عليه ما كان يأتيه من الخوارق ، فطار بها الى السماء ؛ وأطلعها على معارض الجنة والنار على نحو ما ذكرناه لك من قبل •

وليس من شك في ان واضع قصة ابراهيم الدسوقي قد جرى فيها على نمط قصة المعراج ، وتاثر برقائعها الى حد كبير ؛ وكذلك كان لقصة المعراج أثرها وشأنها في الأدب الشعبي للعامه ، كما كان لها أثرها وشأنها في الأدب العالي للخاصة ، فمن هذه القصة استمد أبو العلاء المعري الفكرة في قصته الخالدة « رسالة الغفران » ، كما استوحاها الشاعر الأندلسي ابن شهيد في قصته « التوابع والزوابع » وهي كذلك الفكرة التي حلق بها « دانتي » الشاعر الايطالي في « الكوميديا الالهية » .

على أن دراويش الدسوقي وأتباعه لم يقنعوا بالكرامات والخوارق الكثيرة التي نسبوها لشيخهم في هذه القصة ، فنظموا قصة أخرى ضمنوها انتصاره على علماء الشريعة ومشايخ الأزهر وتروي هذه القصة أن رجلا فلاحا طال به العمر وهو لا ينجب، لأن زوجته كانت عقيما فحلف بالطلاق ان أنجبت زوجه ولدا ليذبح خروفا عرض أليته سبعة أشبار ، فكان أن حملت زوجه وأنجبت ولدا ، وضاقت الدنيا بالرجل لأنه لم يجد خروفا أليته سبعة أشبار حتى يتحلل من يمين الطلاق ، فجاء الى مصر وذهب الى مشايخ الشريعة في الأزهر ، فعرض مسألته على شيخ الاسلام وأربعين شيخا من شيوخ الشرع ؛ ولكنهم لم يجدوا له حلا ؛ فخرج وقد ضاقت الدنيا به ؛ فلقيه

القطب المتولى ؛ وطلب منه أن يذهب الى سؤال الشيخ الدسوقي في دسوق : فأسرع الرجل بالرحيل اليه وعرض عليه مشكلته ، فأفتاه بأن يقيس الية الخروف بشبر الطفل الرضيع ، وبهذا يتحلل من يمينه ، وفرح الرجل بالفتوى التى انقذته من ورطته وذهب الى القاضى فأقرها ، فلما سمع مشايخ الأزهر بهذا جمعوا جموعهم وتوجهوا الى ذلك الشيخ الدسوقى . وجرت بينهم وبينه مساجلات ومناقشات في الفقه والشريعة ، فانتصر عليهم مع أنه لم يجاوز فى الأزهر ولم يدرس على شيخ ، وأقام لهم وليمة كبيرة بعد أن أذعنوا له بالعلم والعرفان ، وشهدوا بقطبانيته وكراماته وعادوا وهم يشيدون بذكره بين الناس .

وهذه القصة فى الحقيقة لها دلالة عميقة . فهى تتضمن ظاهرة كانت وما زالت سائدةفى المجتمع الدينى، وأعنى بها ظاهرة الخلاف الشديد القائم بين علماء الفقه والشريعة الذين يتمسكون بالقرآن والحديث والقياس وأهل التصوف الذين يسمون أنفسهم بأهل الحقيقة ،فأهل الشريعة ينكرون على أهل التصوف ما يزعمونه من الأسرار والخوارق التي تخالف نصوص الشرع ، وأهل التصوف يقولون ان الفقهاء يعيشون بعقولهم مع ظاهر النصوص ولكنهم بعيدون عن السر الذى خصهم الله به ، وأهل الفقه يطلبون العلم ، ودليله العقل ، أما أهل التصوف ، فهم أهل المعرفة ، ودليلها القلب والروح ،

وعلى هذا صنع دراويش الدسوقى هـــذه القصة ليبينوا للناس وجه الحقيقة فى معرفة الخلاف القديم بين الفقهـاء وأهل التصوف وهى قصة يغنيها المداحون ، وتجد رواجا كبيرا بين أهل الريف ، لأنها تمس مشكلة من المشكلات الذائعة بينهم وهى مشكلة الاسراف فى الحلف بالطلاق، وتعليقه على المحالات .

هذا هو القصص الذى يغنى فيه المداحون ويزجرونه الى الناس فى ريف مصر وفى الموالد التى تقام للأوليـاء على نقرات الدف ، وأحسبنى بهذا قد استطعت أن أقدم لك صورة كافية عنهم ، فلننتقل الى موكب آخر من مواكب أولئك الفنانين الهـــائمين على باب الله وهو مـــوكب المنشدين .

المنشدون

ولست أقصد بالحديث هنا ، أولئك المنشدين الذين اشتهر أمرهم بين الناس ، وعرفوا بالانشاد فى محافل الذكر ، وفى حضرات الشيوخ العارفين بالله ، فهؤلاء أهل فن لهم تقاليدهم وطرائقهم . وفى مدرستهم تخرج عدد من أعلام الغناء والتلحين فى الجيل الماضى أمثال عبده الحامولى ، والشيخ يوسف المنيلاوى، والشيخ سيد درويش، وآخر من أدركنا منهم المرحوم الشيخ زكريا أحمد ، وقد كتبت عن هؤلاء المنشدين وطرائقهم فصلا وافيا فى كتاب « السيد البدوى ودولة الدراويش فى مصر» فليرجع اليه من أراد الاحاطة بكل شىء عنهم » .

ولكنى أقصد بالمنشدين هنا طائفة من الفنانين الهائمين يطوفون بالقرى والمدن ، وحيث تقام الموالد للأولياء ، وفى أيام المواسم والأعياد ، وهم يتغنون بالأشعار والأزجال فى أصوات جياشة عميقة النغم ، وألحان صداحة صياحة مفعمة بالألم ، لا يعتمدون فى

ذلك على لحن مصنوع ، ولا يسيرون على طريقه مرسومة وانما ألحانهم نغمات من ذلك الفن الهائم المرسل مع الطبع والمنطلق على السجية ، فيه النشاز والمنحرف ومنه المتقطع والمرتجف ، وقد تقع فيه « الوحدة » مؤتلفة؛ أو مختلفة ، ولكنه على أية حال أبلغ ما يكون فى التعبير عن الحزن الممض والألم العميق ·

وأكثر ما يكون هؤلاء المنشدون من أصحاب العاهات العجائز ، والشيوخ الضرائر ، ولقد ترى الجوقة من العميان يقودهم رفيق لهم لا يزال فى عينه الحسيرة بصيص نور ؛ فهودليلهم وقائدهم ، وهم من ورائه يرسلون أصواتهم الذبيحة المبحوحة عن حال الدنيا المتقلبة ، وصروف الدهر العاتية ، وذكر الجنة والنار وقدرة الرحمن الغفار؛ وأن أجسامهم الناحلة المهيضة لترتعش مع النغمة وتهتز وفق الطبقة ، وأن أوتار أصواتهم المتورمة المنتفخة لتجاهد لعلها أن تصل بالنغم الى قلوب أولئك الذين لا يسمعون ·

وفى أحيان نرى العشيرة كلها ، الأب والأم والولدان على اختلاف أسنانهم وكلهم يغنون معا فى قصيد واحد ، ونشيد متفق . ولكن هيهات أن يأتلف لهم نغم وهم على هذه الحال ، فبينما تسمع الشيخ يرسل صوته فى طبقة هادئة لينة اذا بالصبى يندفع فى نغمة صائحة حادة ، فلست تدرى أهى مرارة الاحساس بشقوة الحياة التى

يحياها ، أم هي صيحة احتجاج يرسلها على من حوله، فهم يسمعون ولكنهم لا يستجيبون •

ولقد نرى منهم الشيخ الضرير ، يمشي في خلقان بالية ، وأسمال متهالكة ؛ ملتزما بالجدران حيث سار وأنه ليرسل صوته في نغم شجي ، وفن رفيع •• معتمدا على عكازته في ضبط الايقاع وربط النغم بين القرار والجواب ، فتأسى لذلك الصوت المصري الأصيل كيف طمسته قسوة الزمن ، وحجزته شقوة الأيام وانك لتعجب لصاحب هذا الصوت كيف يبقى على هذه الحال يطلب رغفان الخبز من وراء فنه الأصيل ، وصوته العذب الحنون ، وفي فوضى الفن عديد لا أصوات لهم ولا آذان يعيشون في بحبوحة منعمين •

وعلى جانب منعزل من الطريق قد ترى شيخا متهدما ، وضع كشكوله أمامه ، وجلس ينشد ويرتل ، واحمتاه للمسكين الواهن انه لم يعد يعرف كيف يتكلم ولكنه يصر على أن يغني ، فما تسمع منه غناء ، وانما هي آهات مكبوتة ، وأنات مكلومة ، وضراعات الى السماء بالعزاء والصبر على ما قدر الله ، وانها لضراعات أوقع في النفس وأنفذ الى القلب من كل ما تسمع من روائع اللحن وبارع الغناء •

ولقد قلت لك ان هؤلاء المنشدين لا يغنون في لحن

مصنوع ، أو نغم موضوع ، وهم كذلك لا يستعينــون في أدائهم بالنقر على الدف ؛ أو بأية آلة موسـيقية ، ولكنهم يعتمدون في التطريب على اللحن المعـدود ، وعلى الاستراحة الهادئة اللينة في جواب النغم ، وهم يترسمون في ذلك طرائق « أبناء الليالى ·· » من مشيخة القراء ، والمنشدين للموالد النبوية ، وأصحاب التواشيح والمدائح، على أنهم قد يأتون في ذلك « بالوحدة » البارعة ، وبالنغـم الذى يصل الى قرارة القلب ، ولقد عرفت عامة المغنين

يرسلون أصواتهم من حناجرهم ، ومنهم الذين يحرصون على أن يخرجوا المقاطع من أنوفهم زيادة في التنغيـم والتلحين ، أما هـؤلاء فانهـم يخرجون أصـوانهم من قلوبهم ، فتخرج وكأنها آهات مبحوحة ، أو أنات ضـارعة مستسلمة ، ولا شيء يصل الى القلب مثل النداء الذى ينبعث من القلب ·

ويغنى هؤلاء المنشدون قصائد من الشعر الفصيح ، أو مقطوعات من الزجل الدارج ، وهى على العموم فى موضوعاتها لا تخرج عن مدائح فى النبى وآل البيت ، أو نصائح تدور حول الوعظ بأحوال الدنيا وتقلباتها ، وأحداث الأيام وتصرفاتها ، والدعوة الى الصبر على نوازل الدهر ، ومكاره الحياة ؛ والرضا بالقضاء والقدر ، فهـم فى حقيقتهم وعاظ ، يعظون الناس بأحوال الدنيا ، ويزجون اليهم معانى العزاء والتأسى ، وأنت لا تجد شعبا يتعلق

بمعانى العزاء والتأسى مثل هذا الشعب المصرى ، لأنه من طول ما عانى من الأحداث المتلاحقة ، والنوازل المتتابعة يحاول أن يتلمس فى هذه المعانى ما يعينه على الصبر ، ويسليه فى البلوى ٠

فاذا كان هؤلاء المنشدون فى أيام الموالد والمواسم الدينية فانهم يغنون من المقطوعات ما يناسب المقام ، فتكون أغانيهم فى مديح النبى ، والالتجاء الى آل البيت من نوع ٠

يا آل طه عليكم حملتى حسبت
أن الضعيف على الأجواد محمول

أو يغنون تلك الاستغاثات التى ينشدها دراويش السيدة زينب وفيها يقولون :

وكم لله من لطف خفى
يدق خفاء عن فهم الذكى
وكم يسر أتى من بعد عسر
وفرج كربة القلب الشجى
وكم أمر تساء به صباحا
فتأتيك المسرة بالعشى
اذا ضاقت بك الأحوال يوما
فثق بالواحد الفرد العلى
تشفع بالنبى فكل عبد
يغاث اذا تشفع بالنبى

أو قول الذى يقول :

يا آل بيت رسول الله حبكـــم
فرض من الله فى القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم الفخر أنكـم
من لم يصل عليكم لا صلاة له

والبارعون منهم فى الصناعة وكثرة المحفوظ يغنون قصيدة طويلة ينسبونها الى الامام أبى حنيفة النعمـــان ومنها :

يا سيد السادات جئتك قاصدا
أرجـو رضاك وأحتمى بحماكا

والله يا خـير الخــلائق ان لى
قلبا مشوقا لا يروم سواكـا

وبحق جاهك اننى بك مغرم
والله يعلـــم أننى أهــواكا

انت الذى لولاك ما خلق امرؤ
كلا ولا خلق الورى لولاكا

أنت الذى من نورك البدر اكتسى
والشمس مشرقة بنور بهاكا

لك معجزات أعجزت كل الورى
وفضائل جلت فليس تحاكى

فلأنت أكرم شافع ومشـــفع
ومن التجا بحماك نال رضاكا

صلى عليك الله يا علم الهدى
ما حن مشتاق الى مثواكا

وعلى صحابتك الكرام جميعهم
والتـــابعين وكل من والاكـــا

أما اذا كان هؤلاء المنشدون في غير أيام المـوالـد والمواسم الدينية فانهم يغنون كما قلت لك فى معـــانى التأسى والصبر ، والوعظ بأحوال الدنيا . ولن أنسى ما حييت ذلك الشيخ الواهن الضرير ، الذى كان يمـر تحت نافذتي مساء كل يوم وأنا طالب فى مدينـــة الزقازيق ، وهو يغنى فى صوت خاشع مطمئن الى قضاء الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

تحيرت والرحمـــن لا شـــك فى أمرى
وحلت بى الأحزان من حيث لا أدرى

وما الأمر أمرى فى البـــلاء وانمـا
بليت بمر الصبر من صـــاحب الأمر

ساصـــبر حتى يعلم الصـــبر أننى
صبرت على شيء أمر من الصـــــبر

فما احسب الصـــبر الجميل مع التقى
وما قدر المـولى على عبـــده يجـــرى

وما كان الشيخ يملك للغناء صوتا طروبا نديا ، ولكنه كان يقطع الكلام تقطيعا مرتلا ، ويؤدى الشعر أداء يفيض بالشجن والرضا والاستسلام ، فكانت كل كلمـــة تخرج من بين شفتيه وهى نغم كامل ، وصورة حية نابضة تثير فى النفس كل معانى الاشفاق والرثاء ، فلا أتمالك من أن أندفع الى مرضاته بكل ما أستطيع من التقدير ، ولقد أقنعنى هذا الرجل بحقيقة فنية ثابتـــة ، وهى أن قـــوة اللحن أساس التأثير بالأغنيـــة والتغلغل بهـا فى حنايا النفوس والقلوب .

ويغنى هؤلاء المنشـــدون فى أحوال الناس وتقلبات الأيام قصيدة منسوبة الى الامام الشافعى ومطلعها :

دع الأيام تفعل ما تشـــاء
وطب نفسا اذا حكم القضاء
ولاتجزع لحادثة الليـــالى
فما لحوادث الدنيـــا بقـــاء
وكن رجـــلا على الأهوال جلدا
وشيمتك السماحة والسخاء
يغطى بالســـماحة كل عيب
وكم عيب يغطيه الســـخاء
ولاترجو السماحة من بخيل
فما فى النـــار للظمآن ماء

الى آخر ما يوردون من أبيات القصيدة ، وهم يغنونها بعدة ألحان مختلفة ، وكل منهم يغنيها على قدر طاقته الصوتية ، فتسمع منهم فى ذلك النغم الطويل الممدود الى آخر المدى ، والنغم القصير المقتضب ، يساعدهم على ذلك مرونة التفاعيل العروضية للقصيدة ، وحرف اللين الممدود فى قافيتها ، وبهذا يثبت أولئك المنشدون أيضا أن كل كلام لا يصلح لاى لحن ، وأن كل لحن لا يوافق أى صوت ، واذا لكل كلام من اللحن ما يناسبه ، ولكل لحن فى الأداء من الأصوات ما يوافقه ، ولهذا فان من الخطأ الفنى الكبير ما يجرى الآن اذ نرى أحد المغنيين يغنى لحنا لمغن آخر ، فان لكل صوت من اللحن ما يناسبه ويشاكله ، وقد كان شيوخ الصناعة يراعون هذا جدا ، فكان عبده الحامولى لا يغنى لحنا يغنيه المغنى محمد عثمان ، الا بعد أن يدخل عليه من التعديل ما يجعله مناسبا لمعيار صوته ، ولأدائه ٠

وأكثر ما يغنى هؤلاء المنشدون حكم ابن عروس ومواعظه وابن عروس هذا شخص ذائع الصيت بين أبناء الريف يتناقلون حكمه ومواعظه جيلا بعد جيل ، ويرددونها دائما مورد العبرة بأحوال الدنيا ، والمقارنة بين طبائع الناس ، وهم يذكرون من أمر ابن عروس هذا أنه كان فى أول أمره من العصاة العتاة ، وكان رئيس عصابة خطيره فى أعالى الصعيد ، تهدد البلاد والعباد ، وترعب أهل السطوة والجاه ؛ وكان ابن عروس يفرض الاتاوات على

الاغنياء ، ويجمع المغانم والفروض من القرى حتى أصبحت له ثروة ضخمة ، وبلغ من القوة والسطوة حتى أصبح وكأنه حاكم مسـلط ، فلما بلغ الستين من عمره ، ورأى شمس حياته تؤذن بالأفول ، عافت نفسه المعاصى ، فتاب وأناب ، ووزع ماله على الفقراء ، وانغمر فى حياة الزهد والتصوف، وانطلق فى البلاد هائما على وجهه ، يرسل حكمه ومواعظه للناس فى نمط من الزجل انفرد به ، واشتهر عنه ،مستمدا ذلك من تجـاربه فى الحياة وخبرته بالناس ، فمن ذلك قوله :

ما ينـام الليـــل مغبون ولا يقرب النـــار دافى
ولا يطعمك شـهد مكنون الا الصــــديق الرافى

دنيـــــاك هـذى غروره كيف لا عبات الخيــال
يا ما فنت من قصــــوره ورجـــال كانـــوا مـوالى

دنيـــاك ما فيهـا مغنم وكلهــــا ما تســـواشى
شـــبه اللى بات يحلم طلع النهار ما لقـــاشى

أوعى نغـــــرك وترميك فى بحر مالو ســـواحل
تنـــدم ولا شيء ينجيـك وتصـــير فى الناس غافل

لا تســـلك الطريق وحدك دور المحبـــة فـــوارق
وامشى مـــع اللى يـودك واترك هوى اللى يفــارق

الحر يصبر على الضـــيق ولا يفـــرح لعـــادى
لو ينشـــف الفم والريق ينـــام على الحـال هادى

ما اشقاك يا شـــاهد الزور فى الحشر حالك يحـــزن
ذنبك لدى الناس مشهور فى يوم يبـان المخـــزن

تغســـل ثيابك بصـابون وتقـول عليهـــم نظـايف
فى باطنك غل مكنـــون ما انتـاش من الله خايف

مسـكين من يطبخ الفاس ويريد مرق من حديده
مسكين من يصحب الناس ويريد من لا يريده

تســـتاهل الكى بالنـار يالى ترافق الخسـايس
لا شيء يفيدك سوى العار منهـم ودوس المجـالس

والله ما هى بســـعيك ولا بكثر الخطـاوى
الا اذا كان ســـعدك فى كل لحـــوال قـاوى

ســلم أمـورك لمـولاك دارى بحـالك وعـالم
تنسر فى يـوم لقيـاك وترتـد للأهـل غانـم

وفى الهاية يختم بقول ابن عروس :

ونختم القول قاصـدين مدح النبى ســيد تهامه
من شرف الكـون بالدين والمعجـزة والكـرامة

واذا كان هـؤلاء المنشـدون جوقة ، وهم أكثر ما يكونون كذلك فى سـاحات الموالد ، وفى أيام الأعيـاد

والمواسم ، فانهم ينشدون قصائد متداولة متوارثة ، مثل القصيدة المشهورة :

الحمد لرب مقتـــــدر   خلق الأشياء على قدر

والقصيدة التى يعزى نظمها الى الشيخ عليش :

الزم باب ربك واتـــرك كل دون
واسأله الســلامة من دار الفتون
لا يضيق صدرك فالحادث يهون
الله المقــدر والعـــالم شـئون
لا تكثر لهمك ما قدر يكون

نحن الخلائق كلنـا عبيد
والاله فينـا يفعل ما يريد
همك واغتمامك ويحك لا يفيد
القضا تحتم فالزم السكون
لا تكثر لهمك ما قدر يكون

وكثيرا ما يرددون القصيدة التالية ، وكان المرحوم محمود القبانى قد صنع فيها لحنا وسجلها على اسطوانة وفيها يقول :

ان رمت المعــالى والعز المقيـــم
فى دار الجنـــان والفوز المبين
ســــلم لا تبالى أمرك للكريم
تحظى بالجمـــال ودوام النعيـــم

ربك ذو الجـلال بأمورك عليـم .
أمرك يا بن آدم سـلمه اليه

واعـلم أن حالك لا يخفى عليه
رزقك واكتسـابك كلهـا عليه

لا تسـأل سـواه فالمرجع اليه
والمقدور كائن فى العـلم القديم

كن عبدا شـكورا راضى بالقليل
واتقل المعاصى واصـنع الجميل
لا تركن لدار مآلهـا الرحيـل
العزيز فيهـا مفتقر ذليـل

كن بالله واثق لا تخشى المليم

ونكتفى بتلك النماذج من ذلك الفن الشجى الهائم لنستمع الى طائفة أخرى من أولئك الفنانين الهائمين يغنون الموال على الأرغول .

على الأرغول ..

ومن الفنانين الهائمين بفنهم على باب الله جماعة يغنون على الأرغول ..

والأرغول اسم مزمار يصنع من قصب الغاب ،وهو مبدل عن الأرغن أو الأرغون بالنون ، ويتكون من أسطوانتين من القصب مضمومتين معا ، واحداهما أطول من الأخرى ، وفى كل من الاسطوانتين أنبوبتان رفيعتان يقال للأولى منهما « البالوص » وللثانية « الركزة » ولكل منهما فتحة من أسفل ، ويضعهما الزامر فى فمه ، ويطبق عليهما الشفتين ، وينفخ فيهما فيحدث الصوت .

والأسطوانة الطويلة فى الأرغول تستخدم فى أحداث قرار متواصل ، أو فى الدندنة ، أما الاسطوانة القصيرة ففيها ستة ثقوب ينقل الزامر أصابعه عليها لتغيير النغمات ، اذ أن كل ثقب يعطى نغمة خاصة من نغمات السلم الموسيقى ، وبهذا يستطيع الزامر أن يصدر من

جوابات النغم ما يوافق أداء المعنى فى تنقله من نغمة الى نغمة ، ومن مقام الى مقام .

وازدواج الأرغول من قصبتين يجعله بمثابة عـــدة آلات موسيقية ، ولهذا كان قدماء المصريين يستعملونه فى أفراحهم دون الاستعانة بأية آلات أخرى معه ، فاذا كان الأرغول منفردا ، أى من اسطوانة واحدة ، فلابد معـه من الاســتعانة بالعود أو القيثار ، أو أية آلة موســيقية مناسبة .

والأرغول من أقدم الآلات الموســـيقية التى عرفها المصريون ، وأبناء الاقليم المصرى وخاصـــــة فى الريف يطربون له أشـــد الطرب ، لأن نغماته القوية توافق مزاجهم ، والصبيان فى الريف يشبون وفى أيديهم هـذا الأرغول يصنعونه من عيدان البرسيم الغليظة ، أو عيدان الحطب الجوفاء ، فاذا ما كبروا وقويت أفواههم صنعوه من الغاب ، ثم انطلقوا يرسلون به أنغامهم وراء الأغنام السارحة ، أو الماشية الغادية والرائحة ، وعلى جســـور الترع ، وبين الحقول ..

ويغنى الفنانون الشعبيون على الأرغول لونا واحدا من الفن هو المـــوال ، ويسميه الباحثون فى تاريخ الأدب المواليا ، ويزعمون أن ابتداعه يرجع الى جارية من جوارى البرامكة ، كانت تنوح عليهم بعـــد نكبتهم ، وتغنى فى

رثائهم ، ثم تصيح فى آخره واموالياه ، فأثر ذلك عنهـــا وسموه بالمواليا .

ومهما يكن من شيء فان الموال فن قديم أصيل فى البيئة المصرية ، وهو فى الأدب الشعبى كالرجز فى الشعر العربى ، قريب المأخذ ، سهل التناول (١) ولهذا تجـد المصريين ينظمونه ، ويغنونه على اختلاف مراتبهم ، سواء فى ذلك المتعلم والجاهل منهم ، بل انك لتجدهم يرتجلونه عفو الخـاطر ، ويتطارحون به فى حلقة الســـامر على البديهة ، وان لهم فى ذلك من الأمثال والحكم ومعانى الوجد والصبابة روائع وأفانين (٢) .

والغناء فى الموال يجرى على لحن رتيب مألوف ، والطرب به يعتمد على الوحدة ، فالمغنى ينطلق فيه بالغناء على هواه وحسبه ما يجد من مطاوعة الصوت ، وكل جهـده أن يأتى فى آخــر ربط النغم بالوحــدة محبوكة ، فاذا ما استقر بها هادئة لينة تقع موقعها من النفوس ، ارتفعت أصوات السامعين متجاوبة بالآهات الممدودة التى تنبعث من شغاف القلوب .

---

(١) كان العرب يسمون الرجز حمار الشعراء ، بمعنى أنهم يندربون على نظمه بسهولة وذلك حتى تقوى ملكاتهم فينظمون الشعر .

(٢) ألفت كتابا كاملا عن الموال تحدثت فيه عن تاريخه ومنزلته بين الفنون الشعبية وسنقدمه الى الطبع قريبا .

وكانوا ينظمون الموال أولا من وزن واحد وأربعة أشطار متحدة القافية ، متواردة على روى متفق مثل قولهم :

عينى التى كنت أرعاكم بهـا باتت
ترعى النجوم وبالتسهيد اقتاتت
وأسهم البين صابتنى ولا فاتت
وسلوتى ، عظم الله أجركم ، ماتت

ولكنهم فى العهد الأخير تطوروا بنظم الموال ، فهم ينظمونه أيضا من أربعة أشطار متحدة القافية ، ولكنهم قبل الشطر الأخير يدخلون شطرا خامسا أو شطرين من قافية مغايرة ، وكأنهم صنعوا ذلك ليستريح المغنى عند هذه القافية المغايرة حتى يستطيع أن يجمع صوته لأداء « الوحدة » المنتظرة فى الشطر الأخير ومثال ذلك الموال العصرى :

يا واخد القرد أوعى يخدعك ماله
تحتار فى طبعه وتتعذب بأفعاله
حبل الوداد ان وصلته يقطع أحباله
تقضى عمرك حليف الفكر والأحزان
ويذهب المال ويبقى القرد على حاله

والمعانى التى يتناولها أولئك الفنانون الهائمون فى أغانيهم على الأرغول تدور كلها حول الشكوى من جور الزمن ، وعنت الأيام ، وجحود الناس ، وانهم

ليسترسلون فى الشكوى والأنين حتى فيما يتناولون من أغانى العشق والغرام ، وكثيرا ما يذكرون « البين » فى معرض الشـــكوى على أنه السبب فى كل ما يلاقونه من العناء والشقاء ، وهم لا شك قد تابعوا فى هذا الشعراء العرب الذين أكثروا من شـــكوى « البين » فى مواقف الفراق ، والبعد عن مواطن الأحبـــاب ، وكان العـــرب يتشاءمون فى هذا بالغراب ، ويعتقدون أن اسمه مشتق من الغربة ، وكانوا يسمونه « غراب البين » ولهم شعر كثير فى ذمه ، والتنديد به ، والفزع من رؤيتـــه ، ومن صوته ، وقد تابعهم العامة فى ذلك ، ولكنهم يتمثلون فى « البين » شـــخصا جبـــارا طاغيا مولعا بحرب الناس والاستبداد بهم وتشتيت شملهم ، وعلى هـــذا تـــدور أكثر « المواويل » التى يغنيها أبنـــاء الشعب ، ويغنيها المغنـــون على الأرغول : ومن ذلك الموال الذى يقولون فى مطلعه :

البين عملنى جمل واندار عمل جمال

لوى خزامى وشيلنى تقيل الاحمال

قلت : يقطعك يا بين هوه الجمل ده ينشال

قال لى : يا جمل امشى خطوه خطوه وكل عقده لها عند الكريم حلال

ولقد حفظت عددا كبيرا من « المواويل » عند هؤلاء الفنانين الشعبيين وأنا صبى فى القرية ، وأيام كنت مغرما

بالتردد على الموالد ومحافل العامة ، ولكن أحداث الايام طارت من الذاكرة الواعية ، واختلاف النهار والليل ينسى ، كما يقول الشاعر شوقي ، ومن العجيب أني وجدت المستشرق « لين » وقد أثبت بعض هذه المواويل في كتابه الذي كتبه عن المصريين في القرن التاسع عشر ، مما يدل على أن هذه « المواويل » قديمة متوارثة ، وأن المغنين يتناقلونها بالرواية ، فمن ذلك الموال الذي يحكي هذه القصة الغرامية :

عاشق رأى مبتلى قال أنت رايح فين
وقف قرا قصته بكوا سوا لثنين
راحوا لقاضي الهوى لثنين سوا يشكوا
بكيوا ثلاثة وقالوا : حبنا راح فين

والموال الذي يقول :

عاشق يقول للحمام هات لى جناحك يوم
قال الحمام أمرك يا خل قلت بعد اليوم
حتى أطير فى الجو وأنظر وجه المحبوب
آخذ وداد عام وارجع يا حمام فى يوم

هكذا أورد المستشرق « لين » هذا الموال ولكني حفظته برواية يقولون فيها :

الفجر لاح قوموا يا تجار النوم

عجب تنـــامم وعينى لـــم رأت نـوم
عاشق يقول للحمـام ادينى جناحك يوم
أطير به فى الجو وأنظر اللى أحبـه يـوم
نزلت بحر الصبابة باحسب انه عـــوم
عشقت وغرقت آلم تستاهل يا قليل العوم
عشق النساء مسخرةفى اليوم وبعد اليوم

وأكثر هؤلاء الفنانين يغنون الموال على الأرغول كما قلت من محفوظهم ، وما يتناقلونه خلفا عن سلف فى شتى المعانى والافانين ، ولكن هناك طبقه ممتازة منهم ، تعتمد على قوة البديهة فى ارتجال الموال ، ونظمه فى المعـانى التى توحى بها المناسبة ، ويتطلبها الموقف ، وأبناء هذه الطبقة لا يتكففون الناس على أبواب المنازل ، وبالسير في الشوارع والحارات ، ولكنهم يؤثرون الوقوف فى ساحات الموالد . وفى المحافل العامة وفى المقاهى البلدية ، وكثيرا ما ترى اثنين منهم واقفين فى الحلبة بين جمع الناس يتطارحان المواليـا ارتجالا ، ويستمرون على ذلك طول الليـل حتى يؤذن ديك الصباح ، وهؤلاء يسميهم العامة « أبناء فن » أى انهم يغنون الكلام ويخترعونه . وكلمة « التفنين » تتوارد على ألسنة العامة بهذا المعنى ، وهم يقولون فلان « يفنن » أى أنه يخترع الكلام ويرسله من تأليفه وتزويقه .

والمبادهة بارتجال الغناء عادة قديمـة بين الفنانين الشعبيين فى المجتمع المصرى ، فقد كان من تقاليدهم كما

روى ابن اياس أن يجلســوا على « الدكــة » للمطارحة بالغناء ، وكانت أغانيهم تعرف بأغانى «ألدكة» و «الدكة» هى الأريكة التى يجلس عليها المغنون ، تشبيها لها بالدكة التى كان يجلس عليها سلاطين مصر أيام المماليك، لأن هؤلاء المغنين كانوا « يتســلطنون » فى فنهم كما كان أولئك الحكام فى حكمهم ، ويظهر أن الجلوس على « الدكة » كان من التقاليد المرموقة ، فلما جاء الســلطان النورى ترك « الدكة » وبنى له « مصطبة » للجلوس عليها ، ثم جاء السلطان طومان باى فهدم « المصطبة » وأعاد « الدكة » فلما سميت أريكة الحكام بعد ذلك باسم « التخت » أطلق هذا الاسم على أريكة المغنيين ، ومن العجيب أن « التخت » قد طوى ذكره فى دولة الحكام ، ولكنه لا يزال يذكر فى دولة الغناء .

ولقد ذكر المؤرخ ابن اياس ثلاثة اشتهروا على عهده « بأغانى الدكة » هم أبو سنة والمحوجب والمحلاوى ، وذكر من شهرتهم أن السلطان الغورى لما رحل الى دمشق أخذهم معه فى موكبه ، ولقد اشتهر فى الأدب الشعبى من هؤلاء الفنانين الشعبيين ثلاثة أشــخاص فى الجيل الماضى ، ومازال الناس الى اليـوم فى القـرى والريف يتناقلون أحاديثهم وآثارهم وأسماءهم ، أولهم الشيخ أبو سنة ، وهو من أهالى طنطا ، ولعله من سلالة أبو سنة الذى ذكره المؤرخ ابن اياس ، والثانى الشيخ أبو كراع ، والثالث الشيخ

عبد الله لهلبها ، ومن العجيب المدهش أن الثلاثة كانوا أميين ، ولكنهم كانوا يرتجلون الموال على البديهة ، ويأتون فى نظمه بالجناس والطباق والمقابلة وسائر المحسنات البديعية ما يبلغ غاية الابداع ، وهى محسنات يرتاح لها الذوق المصرى غاية الارتياح ، نظرا لما فيها من نكت ومفارقات لفظية وما يكون لها من الجرس والرنين .

وأبناء الجيل الماضى فى الريف يتناقلون من خبر الشيخ أبو سنة ، أنه كان رجلا موسر الحال ، يملك عدة فدادين وبيتا فى طنطا ، وقد تزوج بامرأة جميلة كان يحبها ، وعاشت معه سنوات ولم تنجب منه ، ثم مالت الى شاب رومى يتاجر فى « البقالة » وسلمته خاتم زوجها وكل ما لديه من عقود ووثائق بأملاكه ، فنقل الرومى هذه الأملاك باسمه ، وفى يوم عاد « أبو سنة » الى بيته فوجد الرومى مع زوجته ، فطرده الرومى قائلا هذا ليس بيتك ، وقبل أن يرد الرجل حمله الرومى والزوجة وألقيا به من النافذة ، فأصيب بعدة اصابات ، وكسرت سنه ، ولهذا عرف بين الناس بـ «أبو سنة» ولجأ الرجل الى المحاكم ولكنها لم تنصفه من الرومى الذى استولى على أملاكه وعلى زوجته ، واعتدى عليه، لأنها كانت أيام الامتيازات الاجنبية والمحاكم المختلطة لا رحم الله أيامها ، فانطلق فى البلاد هائما يندب حاله فى المجالس والمحافل والموالد ، ويرتجل

في ذلك « المواويل » التى يحفظ منها أبناء الريف الكثير، فمن ذلك قوله في وصف حاله :

ما أصل يا سبع فايت موطنك وذليل
تنظر بعينك تلاقى كل شيء له دليل
أنا ما خلانى أفوت موطنى وأعيش ذليل ودليل
الا الشريك المخالف والزمان الأعوج
ودخلت على الندل من غير معرفة ودليل

ومن ذلك الموال الذى قاله في التنديد بزوجته التى صنع لها الجميل ولكنها خانت عهده وما حفظت له أى جميل :

أنا رافقت ناس خسارة الرفق فيهم
كلتهم لحم كتفى لم تمر فيهم
رحت بر الحجاز أجيب مرايا ينظلم فيهم
أتريهم زى طواحين الهوا
كل من بدر قلب فيهم

أما الشيخ أبو كراع والشيخ عبد الله لهلبها فكانا من أبناء الصعيد ، وكان الشيخ عبد الله لهلبها يمتطى جوادا ويتمنطق بسيف ، ويرى في حالة جذب دائما ، ويعيش متنقلا من بلد الى بلد ، والناس يقبلون عليه ويعجبون بفنه ، ومن كلامه يتشوق الى بلدته اسنا وهو من النوع المعروف « بالواو » ·

يالى هـــواك هوسنـــا
ولا نافعنى حجـــايب
وفكر على هـــوى اسنا
مع ساكنات الحجايب

وارسل اليه الشيخ النجار أمير الزجل فى الجيل السابق فى مرة موالا يقول فيه :

بعدك عن العين كوى المهجـة ولهلبها
ومـــا أذاب مهجتى الا ولهلبهـــا

الى أن يقول :

وفضلت أنشـــد مواوى يواوى لى
قالوا منعرفش غير بوكراع ولهلبها

فاجابه بموال يقول فيه :

والله يا عم لا نخضـــع ولا نجـــار
الا أن خضع لأجنبى رغما ولان الجار
لكن أنا طيع لأرباب الهـــوي نجار
وانت على أهل الهوى سلطانهم أوباش
تنسج حمول الزجل وتلفح الأوباش
مثلـــك بأرغول لا صايـــغ ولا نجار

وله أيضا هذا الموال :

سير يا نسيم يمة أحبابى وسليهم
وقل لهم:خلهم فى الحب سال ليهم
فى القرب والبعد أنا برضه أسليهم
راح النسيم للحبايب بالعجل جانى
قال لى حبايبك شبيه الشهد للجانى
أنا فى غرامهم شهدلا الانس والجانى
على البعد والقرب أهواهم وأسليهم

ولقد كان الشيخ أبو كراع والشيخ لهلبها من الأعلام المشهورين فى فن « المواوية » « والمواوين » طائفة من الفنانين الشعبيين انقرضت ، وطوى فنها ما كان من تغير العادات والتقاليد فى المجتمع المصرى ، وقد كان هذا الفن ذائعا شائعا فى الريف أيام كان رؤساء البيوتات يتصدرون مجالس الجاه والسطوة ليسمعوا أماديح « المواوين » فيما يقصونه من أعاجيب المجد الموروث ، والسطوة القائمة ، والأصول العريقة،وكانت هذه الأماديح شعرا يجرى على أنماطه فى اللهجات العامية ، يرتجلونه بقدرتهم ارتجالا أو يمنحونه من محفوظهم منحا ، حتى اذا هزوا الاريحيات . واهتاجوا فى الرءوس نوازع القوة والفتوة والفخر بالماضى المأثور ، والحاضر المشهور ، عادوا من مبذول عطائهم بصفقة الرابح ، وغنيمة الظافر .

ويغنى أولئك الفنانون على الأرغول نوعا فريدا من الموال يسمونه بالآهات. وقدأخذه عنهم المرحوم بيرم التونسى.

فأبدع فيه وفنن في معانيه ، وقلده فيه كثيرون من الأدباء والزجالين ، ولكن أحدا لم يبلغ شبـــأوه ، فمن ذلك زجله الرائع على الأرغول الذى قاله فى الثورة المصرية ســنـــة ١٩١٩ :

الأوله آه ، والثانية آه ، والثالثة آه ..
الأوله بالبنادق سكتوا الثوار
والثانية جا اللورد ملنر يربط الأحرار
والثالثة تصريح فى فبراير وأصله هزار
الأوله بالبنادق سكتوا الثوار ومدافع
والثانية جا اللورد ملنر يربط الأحرار ويترافع
والثالثة تصريح فى فبراير وأصله هزار ومش نافع

ومن هذا اللون أيضا أغنيته التى تغنيها أم كلثوم :

الأوله آه ، والثانية آه ، والثالثة آه ..
الأوله فى الغرام والحب شبكونى
والثانية بالامتثال والصبر أمرونى
والثالثة من غير كلام راحوا وفاتونى
الأوله فى الغرام والحب شبكونى بنظرة عين
والثانية بالامتثال والصبر أمرونى وأجيبه منين .
والثالثة من غير كلام راحوا وفاتونى قولولى فين .

الى آخر تلك الأغنية التى يجلجل بها صوت أم كلثوم فيهز القلوب والنفوس ..

ولقد ترك لنا بيرم رحمة الله عليه صورة حية نابضة لذلك الشحاذ السارح بأرغوله اذ يقول :

يا ريس الفن يا سارح بأرغولك
طالب من الله

ان شفت بين القبور أطرش ينادى لك
أجرك على الله

زمر على بلوتك واجمع هلاهيلك
وتوب الى الله

طالب من الله وليه طالبه العبيد منك
ياليل وياعين

أجرك على الله لا أجرك على فنك
الفن دا زين

زمر على بلوتك الله يزيح عنك
يوم الحساب دين

ويا لها من صورة حية ناطقة ، استطاع بيرم أن ينفخ فيها روح الحياة ، حتى لتمثل القارىء في كلماتها صورة ذلك الفنان الهائم وهو يسعى بين الناس على الأرض ، يغنى على أرغوله طالبا من الله .

الادباتية

وهؤلاء طائفة من الفنانين الشحاذين ، يستجدون الناس فى الطرقات وفى المحافل العامة ، بأنواع من الشعر الفكاهى ، والزجل الساخر ، مصحوبا ذلك بالتوقيع والنقر على طبل صغير ، وأغلب ما ينشدونه مرتجل فى المعانى التى يوحى بها مقتضى الحال .

والأدباتية كما يسميهم أحمد تيمور باشا ، أوالأدبيه كما يسميهم السيد عبد الله النديم أشبه بطائفة من الشعراء الهزليين نشأوا فى قرية « فودى فير » من قرى نورماندیا شمالى فرنسا ، وكانوا يتغنون بمقطوعات من الشعر قصيرة التفاعيل ، تشتمل على تهكم وسخرية وضحك من الناس ، وقد ذاع هذا اللون من الشعر بين الناس فى فرنسا ، وتسرب الى المسارح ، واختلط بالكوميديا ، ثم أصبح يطلق على كل أنواع الكوميديا الخفية ، وكان من ذلك اللون المعروف الآن بين أهل المسرح

باسم « الفودفيل » نسبة الى قرية « فودى فير » التى كانت منشا أولئك الشعراء .

والأدباتيــة مشهورون فى الاقليم المصرى يعـــرفهم جميع الناس فى القرى وفى المدن وفى كل المجـــلس والمحافل العامة ، وليس هناك من لا يحفظ شـــيئا من مقطوعاتهم السائرة ، وقفشاتهم الساخرة ، ولكنا لا ندرى شيئا عن تاريخ هؤلاء « الأدباتيـــة » ولا نعـرف على التحقيق متى نشـــأوا فى البيئـــة المصريه فليس لهـــم تاريخ يذكر ، ولم يعن أحد مع الأسف بتدوين مقطوعاتهم ومضاحكهم ، ويبدو لى أنهم فى نشأتهم على العموم ثمرة من ثمرات تلك الطبيعة الضاحكة الساخرة ، التى فطـر عليها شعب مصر ، والبراعة الذهنية التى اشتهر بـها أبنـاء هذا الشعب فى تلقف النادرة ، والتفنن فى ايرادها على مختلف الوجوه .

ومن الفنون التى اشتهر بها المصريون فى مجـــال النكتة والاضحاك ، ذلك « الفن الذى يعمدون فيه الى قلب الأشياء وصرف اللفظ عن معناه الأصـــلى الى معنى مغاير يؤدى الى اهدار القياس كما يقول علماء النكتة ، وتحدث به المفارقة التى تثير الضحك ، ومن هذا اللون «المقلوب» ذلك الشعر الساخر الضاحك الذى شاع فى البيئـــة المصرية ، وكانوا يعمـــدون به الى معارضة القصـــائد المشهورة فى الأدب العربى كقول الشيخ عامر الأنبوطى :

أناجر الضان نرياق من العلل
وأصحن الرز فيها منتهى أملي

وهو بذلك يعارض لامية الطغرائى المشهورة التى مطلعها :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل
وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

وكقول المرحوم حسين شفيق المصرى يعارض أبا نواس فى قصيدته المشهورة :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء
وداونى بالتى كانت هى الداء

فأخذ هذا المطلع ، ومضى به الى وجهة أخرى ساخرة ضاحكة قائلا :

من كف صراف بنك لا يجود بها
الا لمن باسمه فى البنك امضاء
من اللواتى عليها رسم مئذنة
بها تعود الى العيان عفياء

فى هذه الدائرة « المقلوبة » وعلى هذا الغرار نشأ فن « الأدباتية » ، ونشأت فى مصر تلك الطائفة التى احترفت اضحاك الناس والترفيه عنهم بهذا اللون من

الكلام الموزون المنظوم ، وان من ذلك الجيد الذى يرتفع
الى ذروة الفن الراقى ، والنازل الذى يعتبر من سقط الكلام . وكذلك كل فن من فنون القول .

والأدباتية يؤدون فنهم جماعة ، من اثنين ، او ثلاثه أو أكثر يبدأ شيخهم بالمطلع فيردون عليه ، ثم يمضى فى ايراد ما عنده وهم لا يتغنون بالشعر ، ولكنهم يؤدونه أداء يبرزون به معانى الكلام ، ويصورون ما تضمنه من الدلالات مستعينين على ذلك بالاشارات المضحكة ، والحركات الخفيفة البارعة ، ويصر الأدباتية على أن يكونوا مضحكين حتى فى مظهرهم ، فهم يطلون وجوههم بمسحوق أبيض . وقد يخططون بخطوط حمراء وصفراء ، ويرتدون ملابس خاصة بهم من الهلاهيل والسراويل وهى على أى حال شىء مضحك .

والأصل فى فن الأدباتية هو اضحاك العبوس ، وادخال الأنس على النفوس كما يقولون ، فتعبيراتهم كلها تدور فى مدار الفكاهة ، وتجرى مجرى النكتة . وهم فى هذا المجال يتناولون بعض العادات والتقاليد بالنقد الساخر ، فكثيرا ما يتحدثون عن متاعب الرجل الذى يتزوج من اثنتين ، وعن المشاحنات التى تقع بين الضرة وضرتها ، وعن مشاكسات الحماة لزوجة أبنها أو لزوج بنتها ، وعن المماحكات التى تحدث بين الرجل وزوجته الغبية ، وعن الزوج المغفل الذى تجرى الأمور فى البيت

من وراء ظهره ، ثم هم يزجون هـذا كله فى قصص طريف ، وفي أسلوب ساخر ضاحك ، يتقبلـه الناس بالضحك والبشاشة، ولكنه يقع فى النفوس موقع العبرة٠

فالأدباتى يؤدى الدور الذى يؤديه رسام «الكاريكاتير» فى ابراز الملامح ، وتضخيم المفارقات ، وهو أيضا يؤدى الدور الذى يؤديه « المنلوجست » على المسرح فى النقـد الاجتماعى والخلقى بأسلوب طريف ظريف ، وهو على أى حال ناقد اجتماعى يسلط فنه الساخر على الأمراض الاجتماعية ، والمفارقات الشائعة فى البيئة الشعبية ، وان من الاسراف أن ننظر الى الأدباتى نظرة استخفاف ، أو أن نحسب فنه مظهر ضحك وسخرية فحسب وانما هو فى معيار الحقيقة فنان مصلح ، له أثره وتأثيره ، وان اتخذ الوسيلة الى هذا ذلك الأسلوب المضحك ٠

ولقـد رأى الزجالون الأثر الكبير الذى يتركه فن الأدباتية في نفوس الجماعات الشعبية ، فاستغلوه في النواحى الاجتماعية والسياسية ، ونظمـوا على غراره فى كثير من الشئون التى تهم فى حياتنا الاجتماعية والسياسية ، نظم فى ذلك عبد الله النديم ، ويعقوب صنوع ، وبيرم التونسى وحسين شفيق المصرى ، وكان فى مجلة « المطرقة باب ثابت لفن الأدباتية يتولاه أحد الزجالين فى أغراض مختلفة ، وما زلنا الى اليوم نرى بعض المسارح الضـاحكة تقـدم ألوانا من هذا الفن ، وهى ألوان ما زالت تتجاوب مع روح الشعب ٠

ولقد كنت أريد أن أورد هنا بعض نماذج من الفن الأصيل للادباتية الذى ينشدونه فى المحافل وفى الشوارع، ولكنى لم أستطع أن أحصل على شىء من ذلك ، فان أحدا لم يعن بتدوين أزجالهم وأشعارهم كما قلت ٠٠ والناس لا يتناقلون عنهم الا بعض النماذج التافهة ، وعلى أية حال فقد سجل لنا المرحوم عبد الله النديم صورة حية تمثل هذا اللون من الفن فى قصة وقعت له مع لفيف من هؤلاء « الأدباتية » ورواها فى مجلته « الأستاذ » قال :

٠٠ اتفق لى أنى كنت بمولد سيدى أحمد البدوى وكان معى السيد على أبو النصر ، والشيخ رمضان حلاوة ، والسيد محمد قاسم ، والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى ، فجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما استلفت أخاه الينا وخصانا بالكلام ، فأخذا يمدحاننا واحدا فواحدا الى أن جاء دورهما الى فقال أحدهما يخاطبنى :

أنعم بقرشك يا جندى
وا اكسنا أمال يا أفندى
الا أنا وحياتك عندى
بقى لى شهرين طوال جيعان

فقلت على سبيل المزح معه :

أما الفلوس أنا مديش ... وأنت تقول ما مشيش
يطلع على حشيشى ... أقوم أملص لك لودان

ثم [illegible] تجارى في الكلام نحو ساعة ، حتى غلبنا
عندما فرغ محفوظهما ، فلما قمنا وتوجهنا الى منـــزل المرحوم شاهين باشا ، وكنا نازلين عنده جميعا ، أخبره السيد علي أبو النصر بما كان مني مع الأديبين ، فلمـــا أصبحنا استدعى شاهين باشا شيخ الأدباتية وطلب منــه أن يستحضر أمهرهم عنده ، ووعده أنهم ان غلبوني يعطيهم ألف قرش وان غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين كرباجا فرضي بذلك واستحضر الشيخ داود والحاج اسماعيـــل الشهيرين بعمل الزجل وانشاده ارتجالا في أي غرض . واســـتحضر معهما ســـتة من أشـــهر الحفظة المقتدرين على الارتجال أيضا ، وعقد الباشا لذلك مجلسا أمام بيته بطنطا وأجلسني بينه وبين المرحوم جعفر باشـــا مظهر ، ووقف الناس ألوفا والعساكر تدفعهم عنا ثم ابتدأ الشيخ فقال :

أول كلامي حمدا لله ثم الصلاة على الهـــادي
ماذا تريد يا عبد الله قدام أميرنا وأســـيادي

فقلت :

اني أريـــد أحمـــد ربي بعد الصلاة على المختـــار
وان كنت تطمع في أدبي أسمعك أحسن الاشعار

فقال :

دعنا من الأدب المشهور وادخل بنا في الدعكة
ندخل على أسيادنا بسرور ونتمم الخير والبركة

فقلت :

هيا احتكم فى البحــــر وشوف
فن النــــديم ولا فنـــــك
دلوقت تســـمع يا متحــوف
أحسن أدب وحيــــاة دقنـــك

فقال : هات مدح فى الحضرة على قد :

تعمل عمـــايلك يا منصـــان يا أبو الشفيفة العســلية
وصــاحب الحجل الونـــان ودى الأمـــور الحيليـــة
ماذا تريد من دى الولـــان قل لى وأســـعت
أحســـن أنا من خمر الحـــان قصـــدى أرشـــف
وان كنت تسمح يا أبو الخير يبقى الوصال ٠٠ الدوا ليه

فقلت :

المجلس العـــالى محمـــود فيـــه الأمـــارة والأعيـــان
واليوم دا يوم مشـــــهود خلعت عليه حلة احســـان
شاهين باشا فيه موجــود حظـــو أزهــــر
أما المدير هـــذا المســعود جعفـــر مظهــــر
فانه ف النـــاس معـــدود من ضـــمن أرباب العرفان

فقال :

القصـــــد منك يا نديمنــــا تعمل زجل هيله بيله
الا أنت دلـــوقت غريمنـــا قصـــدى أحدفك بالقلقيله
وإن كنت تجهل تغريمنا اســـأل عنـــــا

أوعى تعيب فى تكليمنـــا واحـــذر منـــا
أحسن أوديك لعظيمنـــا يشسيلك ألفين شـــيله

فقلت :

انت صـــغار لســـه نونو وفى الزجل منتش مجدع
اتبع نديم تلقى فنـــونو تأتيك من المعنى الأبـــدع
أمـــا عظيمك وضـــونو ياكـــل نفســـه
وان كان يعـــارض بمجـــونو يطلب عكســـه
لأن فنى وشـــجونو لكــــل متعنتظ يردع

ونكتفى بهذا القدر من تلك المناظرة الطـــويلة التى استغرقت ثلاث ساعات كما يقول النديم ، وقد أوردهـــا فى مجلة « الأستاذ » ونقلها عنه أحمد تيمور عندمـــا ترجم للنديم فى كتابه « تراجم أعيان القرن الثالث عشر»

وأما بعد ، فهذا ما أردت تقديمه عن أغاني المداحين وعن الفنانين الشعبيين الذين يعيشون بفنهم هائمين على باب الله ، ولعلى بهذا البحث الذى آثرت فيه الايجاز قد استطعت أن أدلل على أهمية هذا اللون من الفن الذى اعتاد الناس أن ينظروا اليه فى استخفاف واستهانة ، وانما هو فى الحقيقة صورة صادقة لما تنطوى عليه جوانح هذا الشعب من المشاعر والأحاسيس ثم لعلى أكون بهذا قد أديت واجبا بالاسهام فى خدمة الأدب الشعبى بدراسته وتقديمه منذ سنين ، والله ولى التوفيق .

اغانى الكادحين

فى حنايا كل انسان نهر خفى لا يراه أحد أبدا مهما يكن نافذ البصيرة ، عالما بالخفايا والأسرار • انه نهر ينبع من جوهر النفس، وتركيب الروح، وخيال الذهن، ويتدفق دائما فى حنايا النفس الانسانية بمنابع السرور والنشوة والبشاشة ، وكل المعانى التى تخلق التآلف والانسجام بين الانسان والحياة التى يحياها ، والشواغل التى تحيط به على أن هذا النهر الخفى لا يفيض فيضه فى أعماق الانسان ووجدانه الا اذا تحرك ، وليس هناك ما يحرك ويثيره الا الطرب •

فالطرب وحده هو الذى يحرك ذلك النهر الخفى ويثيره ، بل يفجره فى نفس الانسان والاستجابة للطرب طبع تدفع اليه الغريزة ، كلما وجد الانسان نفسه فى ضيق أو شقاء أو رهق من أعمال ، ولهذا نرى الانسان يندفع بطبعه الى الغناء وهو يؤدى من العمل ما ينوء به الجهد ، لأنه بالغناء يستجلب الطرب . ويحرك النهر الخفى فى نفسه ويثيره وبهذا تتدفق فى حنايا نفسه ينابيع

السرور والنشوة فلا يلبث أن ينسجم مع عمله ، وينقبله وينشط لآرائه ، وينسى ما فيه من جهد وعناء •

هذا الفلاح يغني وهو يتصبب عرقا وراء محراثه ، وهذا الزارع يصيح بالموال وهو يصارع الأرض بفأسه وهذا الحصاد يترنم بأنغام الحب والوصال وهو يطوى الزرع فى منجله وهذا الراعى يقود القطيع بالشدوفى شبابته وهو يترنح فى أسماله وانك لتعجب اذ ترى عامل البناء يحمل فوق كاهله من أثقال الحديد والحجر ما ينوء به الجهد ، وانه ليصعد فوق ألواح « السقالة » طابقا بعد طابق وصوته يجلجل بالغناء فى توقيع رتيب وأداء منسجم واخوانه من ورائه يرددون النغم فى نشوة وانسجام • هؤلاء جميعا وأمثالهم من الكادحين انما يندفعون الى الغناء ويسترسلون فى الطرب مع شقاء العمل وعناء الجهد ليحركوا ذلك النهر الخفى فى أعماقهم ، وليثيروا منابع السرور الكامنة فى حنايا نفوسهم ؛ فاذا هم فى انسجام وتآلف مع العمل يتقبلونه فى بشاشة وينشطون لأدائه فى نشوة وجذل •

وهذا الانسجام بين الانسان وحياته • وبين الانسان والعمل الذى يرهق طاقته ، والعناء الذى يستغرق جهده . هو الأصل والغاية فى مهمة الفن ورسالته الى الحياة الانسانية ، فالفن فى حقيقته انسانى انبعث من طبيعة الانسان منذ كان الانسان ، ولا يمكن أن يخرج من نطاق

الطبيعة الانسانيــة ، وأنا أقول الفن وأعنى الفن بجميع أشكاله وألوانه وزخارفه ، والواقع أن الطرب هو الأصل الأول لكل هذه الأشكال والألوان والزخارف . فالانسان غنى قبل أن يتكلم وكان الغناء أول لون عرفه من ألوان الفن ، لأن الانسان صوت صائحا قبل أن يرتاض لسانه على النطق بمقاطع الحروف والكلمات بزمن طويل جدا ، وكان العرب كانوا يشيرون الى هذه الحقيقية حينما سموا الغناء صوتا ، ومن الطبيعى أن يكون الانسان فى حياته الأولى قد صاح بالألم قبل أن يصيح بالأمل ، فان الألم رهن الحاضر ، والأمل قرين الغد ، وكان الانسان الأول ابن يومه ، ولم يكن له غد يحرك خياله بالأمل .

فمنذ صوت الانسان فى حياته الأولى ، وعندما جرحه الشوك على طريق الحياة صاح بالآه ووجد فيها راحة لنفسه ، وتجاوبا وانسجاما مع ألمه ، وما زالت الآه الى اليوم تشق حناجر المغنيين وأهل الطرب ، ولقد نقش الانسان ورسم وصور ، وقال الشعر وصاغ الكلام الموزون المنغم ، كل هذا ليثير النهر الخفى . الكامن فى حنايا نفسه ، وليجد الانسجام والتآلف مع الحياة التى يحياها والناس الذين يعيش بينهم ، والعمل الذى يؤديه ويواجهــه ، وما زال الانسان يعيش بهذا الطبع الغريزى الى اليوم ، فأغانى الألم ، أو أغانى العمل ، أغانى الكادحين على طريق الحياة ، هى أول ما شدا به الانســـان من ضروب الغناء ، وأول ما حرك من نشوة الطرب فى نفسه ، وهى الأصل لكل ما

عرف الانسان من فنون الصوت والنوح والغناء ، وعندما غني الانسان الأول، كان هو المؤلف والملحن والمغني، أعني أن وحدة العمل الفني كانت متمثلة في شخصه ، كما نقول في التعبير الحديث ، ومن هنا كان غناؤه أصدق في الأداء والتعبير ، وأقدر على تحريك النهر الخفي الكامن في حنايا النفس . من ذلك الغنـاء المصنوع الذي يقوم على تقليد العواطف والمشاعر ، ويكافح بكل الوسائل الفنية ليحرك ما فينا من احساسات ومشاعر . ويهز نهر الطرب الكامن في أعماقنا . وكان الانسان الأول يعتمد في الغناء عـلى الصوت وحده ولم يكن يستعين بأية آلة من آلات الدق أو النفخ أو الصفير ، لأنه لم يعرف هذه الآلات المساعدة الا في زمن متأخر ، أما في التلحين فكان يعتمد على التجاوب والانسـجام مع حركة العمل الذي يؤديه . بل ان حركة العمل هي التي كانت تفرض عليه مسار اللحن ، وتهيىء له انسجام النغم . نغمة قصيرة مع الحركة القصيرة ونغمة طويلة الزمن مع حركة العمل الطويلة ، ومسـار اللحن صعودا ، وهبوطا . وقوة وضعفا ، وفقا لما تكون عليه حركة العمل ، ومسارها في الأداء .

واذا كان أولئك الكادحون قد غنوا وترنموا بأهازيجهم ليفجروا نهر الطرب الخفي في حنايا نفوسهم ، وليستقوا من فيضه نشوة وبشاشة وانسجاما مع الحياة ، فانهم لا شك هم الذين أهدوا الى دنيا الفن والغناء أروع الأنغام والألحان وأسدوا اليها تلك المقامات والنغمات التي جعلهـا رجال

الموسيقى أصولا وقواعد واستخلصوا منها المقاييس الفنية ، والضوابط التى ما زالت للموسيقى ، وما زال أهل الطرب يعيشون عليهـا فى فنهم ، وهم لا يضيفون الى أصلهـا جديدا ، وانما يطورونها بحسن التوزيع وبراعة الاستخدام.

وأضرب لذلك مثلا من مصر ، فنغمة « السيكا » التى يعتمد عليها الملحنون عندنا اليوم ، فى تلحين أكثر الأغانى ، حتى أنهـا لتعتبر النغمة الأصيلة السائدة فى أغانينا وأهازيجنا ، هذه النغمة فى الواقع نغمة مصرية أصيلة ، أهداها الفلاح المصرى الى أهل الموسيقى والغناء . فنحن اذا تأملنا هذه النغمة فى عزفها وفى مسارها اللحنى ، فاننا نجدها نغمة طويلة فى زمنها الموسيقى تنتهى دائما بقفـلة تتكرر دون أى تبـاين أو اختـلاف ، واذا لاحظنـا الى جانب هـذا عملية جـر الثـور للمحراث ، فأننا نجدها تمثل هذه النغمة تماما ، فهى عملية تجرى على وتيرة واحدة ، اذ يسير المحراث فى خط طويل بطول ما يسميه الفلاحون « بالمرجع » ثم تنتهى بقفلة هى « قلع » الفلاح للمحراث من الأرض والعودة به الى بداية خط جديد . وهى قفلة تتكرر فى نهاية كل خط لا تختلف أبدا ، وعلى هذا الوضع أو هذا المسار لحركة العمل كان الفلاح يغنى ويده على المحراث ، منسجما مع الحركة وهو يغدو ويروح ، وراء المحراث ، وكانت هـذه النغمة التى نسميها اليوم « بالسيكا » ، ويسميها بعض الباحثين بنغمة الاستعطاف ، من هذه النغمة كان المصريون

القدماء ، يغنون « أنشـودة الحراث » و .. « أنشـودة الحصيد » و « تحية رع » . وقد وجد اليونانيون أيام كانوا فى مصر فى هذه النغمة المصرية الأصـيلة انسجاما مع مشاعرهم فنقلوها الى بلادهم ، وعنهم ذاعت فى موسيقى العالم ، ولكن بعض الباحثين الأوربيين يزعمون أن اليونانيين هم الذين نقلوا الينا هذه النغمة ، والباحثون عندنا يزعمون هذا لأنهم يصدقون كل ما يقوله الأوربيون .

وموسيقى « الجاز » الذائعة فى العالم اليوم والتى تملأ الدنيا صخبا وضجيجا ، وحنانا وأنينا ، انهم يقولون ان هذه الموسيقى هدية أمريكا الى العالم ، ولكن يجب أن نعرف أنها من قبل ذلك كانت هـدية زنوج أفريقيا الى أمريكا ، وأن الأمريكيين قد أخذوا أنغام هذه الموسيقى من التراث الأفريقى ومن تقاليد الغناء الشعبى للزنوج الذين كانـوا يعملون فى ريف الجنـوب .. الأمريكى . وأصوات جماعات العمال وهم يعملون فى السكك الحديدية . وفى حقول القطن المتربة ، ثم من صوت الطبول الافريقية المتعذدة الأنغام ، وقد اتخذ الموسيقيون من هذا كله قاعدة لكل الأنواع والأصوات التى أطلقوا عليها اسم موسيقى « الجاز » وأهدوها الى العالم ، وتجاهلوا القواعد الصارمة للموسيقى الغربية بما فيها من توقيت محدد من بداية ونهاية وما فيها من ترقيم وخطوط مستوية فى الميزان الموسيقى ، ومن هنا كان الأثر الافريقى واضحا ، بل كان هو الطابع المميز لهذه الموسيقى . موسيقى « الجاز » :

وانى لأعرف من كبار الملحنين من أخذوا أعظم ألحانهم وأروح أغانيهم عن أولئك الكادحين ، فكانوا يخرجون الى مواقعهم ويتعقبون طريقهم لعلهم أن يجدوا فى أصـــواتهم وأغانيهم مسارا للحن يصنعونه لاحدى الأغنيات ، وكان المرحوم الشيخ زكريا أحمد يخرج بنا الى طرقات القاهرة . نسير على غير هدى لعله يسمع من بائع جائل ، أو عامل يغنى ، لحنا ينتفع به ، أو يأخذ عنه ثم يسويه فى مســـار اللحن الذى يريد أن يصنعه ، وكانت تأخذه روعة الأصوات والأغانى التى يرددها الكادحون ، فى شقاء العمل أو فى هدأة الليل ، وأذكر أننا كنا نجلس معه فى مرة على شاطىء النيل ، ونسيم الليل يسرى الينا من الشاطىء الغربى يحمل أصوات أبناء الجنوب ، وهم يغنون « ونا كل ما أقول التوبة يابوى ترمينى المقادير » . فأخذ الشيخ زكريا يشد شعره ، وينتفض عجبا وهو يقول : من ذلك الموسيقى البارع الذى صنع لهم هذا اللحن ، ولقنهم حفظه ، وهم يؤدونه فى غير نشاذ أو شذوذ ، وما درى أن حركة العمل وألم العمل كانا من أبرع الموسيقيين •

والموسيقار المرحوم محمد القصبجى كان كذلك يصنع . سمع مرة بائعا جائلا ينادى على الزيتون الأخضر ، فأخذ من

ندائه المنسجم ذلك اللحن الذى صنعه المشهور : « يا فايتنى وأنا روحى معاك » ٠

وشعب مصر طروب بطبعه ، وعلى ضفاف النيل عاش المصرى يكافح ويصارع الأرض وهو يغنى ، وغناء العمل فى مصر ألوان وفنون ، وثقافة فنية رائعة ولعلنا فى جولة مع أغانى الكادحين فى مصر نستطيع أن نقدم شيئا عن هذه الفنون والألوان ٠٠

أغاني النيل

أثارت العروض التى قدمتهـا الفرقة المصرية للآلات والأغاني الشعبية في باريس اعجاب الفرنسيين ، وهاموا بها حبا وشغفا ، وأطلق النقاد الفرنسيون على هذه الأنغام اسم موسيقي النيل ، ووصفوها بأنها أنغام مصرية أصيلة . وقالوا ان أروع ما في العروض الموسيقية والأغانى التى قدمتها الفرقة ، شدة التآلف الذى يستغرق مشاعر السامع على الرغم من أنها موسيقى ارتجالية تعزفهـا الفرقة على الزباب ، والمزمار والناى ، والدربكة ، والدفوف ، وهى نفس الآلات التى كان يستخدمهـا العـازفون فى مصر الفرعونية منذ ستة آلاف سنة ..

هذا الفهم لأغانينا وموسيقانا الشعبية الذى فطن اليه النقاد الفرنسيون لم يفطن اليه أحد عندنا من رجال الفن والدارسين للموسيقى ، وهم يسمعون الأغانى الشعبية صباح مساء ، وكأنهم لا يرونها شيئا يستحق الدراسة والاهتمام مع انها تمثل روح مصر الأصيلة . وعواطفها الانسانية التى عاشت بها على ضفاف النيل . تنشد الأمل

والرجاء ، وتغنى للزرع والحصاد وتبتهل للآلهــة فى الخير والنماء ، فهى بحق موسيقى النيل وشخصية الأمة التى تعيش على ضفاف النيل منذ تدفق بالماء « حياة » للأرض و « حياة » للزرع ، وحياة الانسان ، فكل ما فى مصر من أنغام وألحان وشدو وشجو انما هو هبة من فيض النيــل العظيم ، والحق أن أعظم حدث فى تاريخ مصر ،على امتداد الزمن هو اكتشــاف النيل ، ففى ذلك ٠٠ اليوم البعيد الذى لا نعرف موضعه ولا موقعه من التاريخ ، والذى عثر فيه المصريون الأولون على النهر الخالد ، وراء مياهه المتدفقه تغمر الوديان ، واكتشفوا على ضــفافه المرعى الخصب ، والأرض الصالحة للاستثمار والاستقرار ، فى ذلك اليوم بدأت حياة المصريين ، شعبا يرتبط وجوده بكل ما يمسحه النيل لأبنــاء هذا الشعب ، من خصب ونمــاء . وبدأت الحضارة تظهر فى تلك البقعة من الأرض ، يوم لم يكن هناك حضارة في أية بقعة من الأرض، وبدأت حياة الفن والموسيقى والغناء ، وبدأت تلك النبرات المبحوحة تنطلق من حناجر الكادحين على ضفاف النهر الخالد ، وفوق الهضاب والجسور ، وعلى الجداول والغدران ، وخلف القطعان فى المروج والحقول والى جانب الســواقى الشــادية الباكية ، ومع حركات الشواديف الصاعدة الهابطة ، وهذا هو ما نسميه الأغانى الشعبية ، وليس هذا كله الا من فيض النيل . والهــام النيل لذلك الشعب الطروب ٠٠

غنى المصريون أول ما غنوا فوق مياه النهر ، وهم

يكافحون ويجدفون ، فقد عرف المصريون صناعة الزوارق فى زمن مبكر جدا من التاريخ ، وكانوا يصنعونهـــا من البردى أو الحلفاء ، ويغلفونها بالقار ، ثم أخذوا يصنعونها من جذوع الاشجار الخاوية ، ثم من ألواح الخشب حيث صنعوا السفن الكبيرة للملاحة فى النيل ، ثم خرجوا بها الى البحر الأحمر . وتدل الآثار التاريخية على أن نهر النيل هو أول نهر فى الدنيا ظهر فيه فن التجديف ، فهناك صور تمثل قوارب بمجاديف مرسومة على أقدم الآثار المنقوشة فى مصر ، وقد ظهر من تلك الرسوم البارزة أن الزورق النيلى كان فيه عشرون مجدافا يجلس عليها عشرون ملاحا أو نوتيا ، وهم يدفعون الزورق بمجاديفهم ، وعلى ضربات هـذه المجاديف فى مياه النهر الهـادىء الوديع ، يغنون ويهزجون بأنغامهم ، ليجدوا فى نفوسهم نشوة العمل . وليكافحوا تيار النهر المتدفق من أقصى الجنوب .

فأنغام النوتية أو المراكبية على مياه النيل كانت لا شك بداية الغناء فى مصر ، وكل الأغانى التى رددها المصريون على ضفاف النيل كانت من وحى النيل والهامه وهبة من هباته ، انها أغانى الكادحين الذين غنوا مع أنين السواقى ومع حركات الشادوف والآلات الرافعة التى تغترف مياه النيل . وغنوا للزرع والحصاد ، وهما هبة من هبات النيل ، وغنوا وراء القطعان التى تغدو وتروح وتشبع وتتكاثر مما يمنحها النيل ، وغنوا فى المروج والرياض لأنها هبة من خصب النيل ، وغنوا للأرض وخصبها وما تحققه من نماء

وبفضل طمى النيل ومياه النيل ، وغنوا للجداول المنسابة الرقراقة التى تتدفق بمياه النيل ، وغنوا للحب والهيام والجمال لأنها المعاني التى غرسها فى نفوسهم النيل ، فكل الأغانى فى مصر هى بحق كما قال النقاد الفرنسيون أغانى النيل وأنغام النيل ، وأحب أن أقـــول لك ان ٠٠ أغانى الكادحين على مياه نهر النيل وعلى ضفاف النيل وفى الأرض التى كانت هبة النيل ، لم تكن فى ألفاظها مقصورة على وصف العمل الذى يمارسه العامل ، بل انها كانت تعبر عما يجول فى نفسه أو فى خاطره ، أو الاحساس الكامن في حناياه، كل ما هناك هو أن يكون نغمها وايقاعها منسجما مع حركة العمل : فقد يكون ٠٠ المراكبى فوق مياه النيل يجدف ويكافح فى جر مركبته ، وهو يشدو بأغانى الحب والهيام ، وقد يكون الفلاح وراء محراثه يتصبب عرقا وهو يغنى ، ولكنه لا يذكر الثور والمحراث ، وانما يعبر عما فى نفسه من مختلف الأمانى والرغبات ، والصبايا يعملن فى جمع القطن وأصواتهن الحلوة الشجية ترد بأغانى الوصال وليلة الدخلة والصباحية ، ولا يذكرن شيئا عن القطن ، انهن يعربن عن آمالهن اللذيذة ، وهى الآمال التى كانت عادة تتحقق اذا ما جاء القطن بالمحصول الوفير ٠

وكذلك كانت أغانى الكادحين فوق مياه النهر ، انهم يتحدثون فى أغانيهم عن الريح التى تملأ القلوع ، وعن مياه النهر المتدفق على مدى السنين ، ولكنهم يتحدثون أيضـــا عن الغربـة والبعد عن الأحباب واللهفة على يوم

الوصول والوصال وعن حياة البحر وما فيهـا من متـاع وبهاء ، وعلى أية حال فان الكلمات الأولى التى غناها النوتية أو المراكبية فى أول يوم ركبوا فيه مياه النهر لم تصلنا ، وانما وصلتنا بعض التعبيرات التى كانوا يستخدمونها وهم يكافحون المياه ، وبعض المقطوعات التى كانوا يؤثرونهـا أو يستلهمونها فى أغانيهم وأهازيجهم ، وما زالت بعض هذه التعابير تتردد بيننا الى اليوم ، وقد كان المراكبية وهم يكافحون ٠٠ تيـار النهر المتدفق من الجنوب الى الشمال بالمجاديف ، أو عندما كانت تتوقف الريح فلا تملأ القلع وتكون قوة رافعة للمركب ، فيعولون على دفعها بالمزاريق أو بالجر بالحبال وهم يرددون أنشودة يقولون فيها :

هيـلا هوب ٠٠ أتهيـلا هيصـا

وهى كلمات مصرية قديمـة ، أو قبطية ، ومعناها الشغل ، الشغل دخلنا الميناء ٠ قربنا من الغاية ، وقـد توسع النواتية أو المركبية فى هذه الأنشودة فيما بعد ، وما زالوا يرددونها الى اليوم فيقولون :

الهوب الهوب النـوب
والهـواء شق التوب
الهوب الهوب الهلاليب
والهواء شق الجلاليب

« والنوب » هو الذهب ويقصدون بذلك بلاد النوبة

ولنتذكر هنا «الذهب والهلاليب» هي خطاطيف السفينة ،
فإذا اشتغلوا ... فان الهواء ... شيئا بدأ يشق
... سور السفينة على البر ... بالهلاليب وقد
... كلمة «هيلا هوب» الى جميع الطوائف من العمال
... فهم يرددونها الى اليوم في كل عمل شاق وفي
... بكل حمل ثقيل فيقولون «هيلا هوب هيلا» .
... أخذ الشاعر شوقي هذه العبارة وجعلها مطلع أغنية
... غناها المطرب محمد عبد الوهاب .

... الأغاني الشعبية تعج بالعادات والتقاليد
... قديمة ... المأثورة ،
ونحن في ... العمال يعملون على البر
أو في النهر فيقولون « رامبسو يا رامبسو » .. و « آمون
يا آمون » ، وهم بهذا يرددون كلمات قديمة جدا ، وان لم
يكن في خاطرهم ما تنطوي عليه من المعاني والاشارات ،
فكلمة رامسو المقصود بها رمسيس أو رع رمسيس وآمون
هو الاله آمون عند قدماء المصريين وتعتبر أغاني النوتية
أو المراكبية في النيل ... الأغاني ... الشعبية
بالكلمات المصرية القديمة ... الاصطلاحات التي ما زالت
جارية على ألسنتهم الى اليوم ، لأن أبنـــاء النهر يعيشون
بالوراثة مع النهر ، فهم يتناقلون الأغاني والأناشـــيد
والاصطلاحات بالوراثة جيلا عن جيل ، في نمط تاريخي
متسلسل فهم ما زالوا الى اليوم يرددون كلمـــات « الطياب
... السفينة ... والمنية أو

الميناء ، الى آخر تلك الكلمات التى ترجع أصولها الى اللغة الهيروغليفية أو القبطية ، كما كان شائعا فى مصر القديمة .

أما أغانى الملاحين فى النيل أو المراكبية وأبناء النهر فقد تطورت على امتداد السنين ، وتنوعت عباراتها وموضوعاتها وما فيها من لمحات واشارات وأنغام تفيض بالشدو الذى يفعم القلوب ويهز النفوس ..

[illegible]

[illegible]
ISBN [illegible]

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٣٢٨/١٩٨٤

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٣٠٧ ـ ١

مختارات من القصص الشعبى الذى يغنيه المداحون .. فى ضوء الحقائق النفسية والآثار الاجتماعية التى زرعتها هذه الألوان الغنائية فى الوجدان الشعبى .

الكتاب القادم :

موقف الإسلام م

محمد عبد الواحد



٣٥ قرشـــا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب